المنهل العذب الروي
في
ترجمة قطب الأولياء النووي

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي

المتوفى ٩٠٢ هـ

ويليه

تحفة الكرام
في مناقب سيدي أبي بكر بن قوام

لحفيده الشيخ محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام

المتوفى ٧١٨ هـ

ويليه

مناقب سيدي أبي العباس السبتي

ويليه

الروضة الريا
فيمن دفن بداريا

للإمام عبد الرحمن بن محمد العمادي

المتوفى ١٠٥١ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي





دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

المنهل العذب الروي

في

ترجمة قطب الأولياء النووي

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي

المتوفى ٩٠٢ هـ

وبليه

تحفة الكرام في مناقب سيدي أبي بكر بن قوام

لحفيده الشيخ محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام

المتوفى ٧١٨ هـ

وبليه

مناقب سيدي أبي العباس السبتي و الروضة الريا فيمن دفن بداريا

للإمام عبد الرحمن بن محمد العمادي

المتوفى ١٠٥١ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي




دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Four books in Sufism

Author: Al-Sahāwi,and others

Editor: Aḥmad Farīd Al-Miziyadi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 168

Year: 2005

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي

المؤلف: السخاوي

المحقق: أحمد فريد المزيدي

الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بيروت

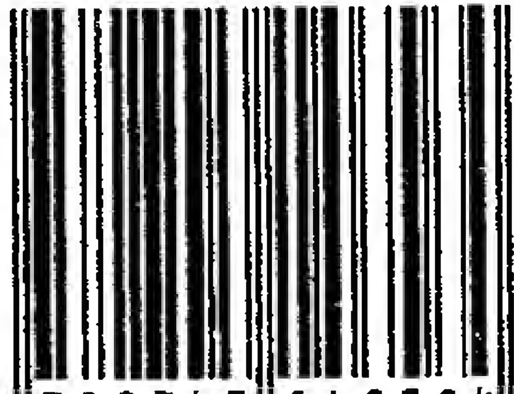
عدد الصفحات: 168

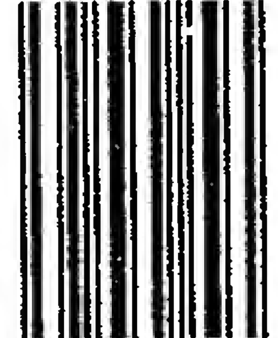
سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4656-4





90000

9 782745 146564

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية

Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢/١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، سيدنا محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المقربين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب يجمع نفائس من أنوار العارفين، الذين هم نقطة من صاحب الحقائق وسيد الخلائق، وجامع أسرار الدقائق، سيدنا محمدٍ ﷺ.

فأُولاهم: إمام الأئمة وشيخ الإسلام شرف الدين محيي الدين النووي رضي الله عنه، جمع له ترجمة، جزء من كلٍ عن مناقبه وفضائله، وشيوخه وتلامذته ومصنفاته ونحوه، قام بذلك علم من الأعلام هو الشيخ الإمام شمس الدين السخاوي الشافعي، وأصل الكتاب، طبعة لجنة النشر والتأليف بمصر، طبعة قديمة، فقمنا بالضبط والتحقيق والتخريج والعزو والتعليق، والترجمة للسخاوي.

وثانيهم: كتاب مناقب الإمام أبي بكر بن قوامٍ قدّس الله سره. تُذكر فيه شيئاً من كراماته، وأحواله، ليكون سبيلاً للعارفين، ودليلاً للطالبين المتحققين بعين حياة الواصلين.

وثالثهم: مناقب سيدي أبي العباس السبتي المغربي قدس الله سره، أحد أقطاب المغرب وأوتاد الكون المتصرفين، وهو يذكر فيه أحواله وكراماته، جمعه حفيده الإمام الشيخ محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوّام البالسي وكلاهما أصلهما معاً عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٥٩٧) تاريخ.

ورابعهما: الروضة الرّيّا فيمن دُفن بداريّا ـ غوطة دمشق الفيحاء ـ، قال فيه ابن الأثير: «خرج منها جماعة من العلماء والصالحين» (اللباب ١/ ٢٤٣).

قام بتصنيفه الإمام الكبير عبد الرحمٰن العمادي فذكرجماعة من الصحابة والتابعين كأبي ثعلبة الخشني، وأبي سليمان الداراني رضي الله عنهما.

وأصل الكتاب مصورة معهد المخطوطات بالقاهرة عن النسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (١١٣٨٠ عام) تقع في ٢٦ ورقة ذات وجهين.

وكذلك النسخة المطبوعة ببيروت، فقد بذل فيها جهداً طيباً، فجزى الله كل من قام على نشر العلم وإخراجه خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

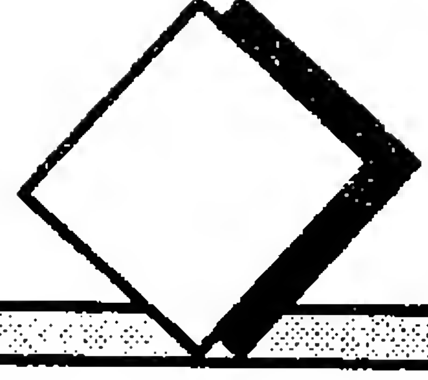
المنهل العذب الرّوي

في

ترجمة قطب الأولياء النّووي

للإمام الحافظ شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السّخاوي
المتوفى ٩٠٢ هـ

تحقيق
أحمد فريد المزيدي



ترجمة مختصرة للمصنف

هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ الفقيه المؤرخ: محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، الملقب بشمس الدين، وأبي الخير، وأبي عبد الله بن الزّين، والجلال أبي الفضل، وأبي محمد، السخاوي الأصل، القاهري، الشافعي.

ولد في ربيع الأول سنة ٨٣١هـ بحارة بهاء الدين، علو الدرب المجاور لمدرسة شيخ الإسلام البلقيني، ثم تحول لسكن آخر بجوار شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني.

وأخذ العلم وتتلمذ على كثير من أهل العلم من مشايخ عصره، بمصر ونواحيها، حتى بلغوا أربعمائة نفس، وأخذ في حلب عن قريب من مائة نفس، وفي الإسكندرية، ودمياط، والمحلة، ومنوف العليا، والمنصورة، وما جاورها ـ وقد صنّف كتاباً في تراجم شيوخه، جمعه في ثلاث مجلدات، أسماه «بغية الراوي بمن أخذ عنه السخاوي».

من تصانيفه:

١ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث.

٢ ـ الغاية شرح الهداية لابن الجزري، بتحقيقنا.

٣ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

٤ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

٥ ـ الذيل على تاريخ الدول للذهبي.

٦ ـ الجواهر والدرر على ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر.

٧ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع.

٨ ـ المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة.

٩ ـ التماس السعد في الوفاء بالوعد.

١٠ ـ الذيل على رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر.

١١ ـ التبر المسبوك.

١٢ ـ المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي.

١٣ ـ عمدة القارىء والسامع في ختم الصحيح الجامع.

١٤ ـ غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج.

١٥ ـ بغية الراغب المتمني في ختم النسائي رواية ابن السني.

١٦ ـ الابتهاج بأذكار المسافر الحاج.

١٧ ـ القول المنبي في ترجمة الشيخ ابن عربي.

١٨ ـ تجريد أسماء الآخذين عن الشيخ ابن عربي.

١٩ ـ الإيقاظ في الوعظ.

وتوفي رحمه الله عصر يوم الأحد من شعبان سنة ٩٠٢هـ بطيبة. وانظر في ترجمته:

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٨/ ١٥).

٢ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (٢/ ١٨٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت

الحمد لله الذي منح رجالاً بسلوكهم المنهاج ذكراً به المجالس تعطر والقلب يحيى، وفتح بتيسيره لهم أقفالاً زاد بإنفاقهم من كنوزها الابتهاج، فهم في روضة بل في رياض في الآخرة والدنيا، وجعل العمدة عليهم في التصحيح والإيضاح، والمفزع في الشدة إليهم في الغدو والرواح، فهم كذلك لا ترخيص عندهم في القيام بالدين، بل قائمون بالتبيان إلى الغاية والتحقيق المتين، أحمده على الإرشاد للاهتمام بالسنة التي فيها بستان العارفين، وأشكره لما اتضح من الأصول والضوابط التي بها قلب كل مسلم ينشرح بيقين، وأستعينه في فهم مجموع المشكلات وأستهديه سلوك طريق أولي الولايات، وأسأله التوفيق لنشر ما لهم من المكرمات بالدلائل النيرات، وأستغفره من الذنوب الخفيات والجليات، وأرجوه في إخلاص الأعمال والنيات، وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له ربّ الأرضين والسماوات وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ذو المعجزات الباهرات صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم في الحركات والسكنات صلاة وسلاماً دائمين في الحياة وبعد الممات.

وبعد، فهذا جزء استوفيت فيه أحوال شيخ الإسلام، وإمام الأئمة الأعلام، وقطب الأولياء الكرام، ونادرة الزهاد الوافر في ورعهم السهام، المجتهد في الصيام والقيام، والقائم بخدمة الملك العلام، محيي الدين النووي رضي الله عنه ورضي عنا به ومنح كلامنا في الخير منتهى أربه، التي أفردها خادمه العلامة علاء الدين بن العطار مع زيادات جمة ميزتها بقولي (قلت ثم أنتهي) قصداً للتمييز لا للاستكثار من نسبه ونسبته ومولده ونشأته وذكر شيوخه وتصانيفه الدالة على تقدمه في رسوخه ونبذة من كلام الأئمة فيها ومن انتدب منهم للتكلم عليها وما وليه من الوظائف الدينية، ومن علمته عنه ممن سلكوا الطريق المرضية، وجملة من أوصافه المصرحة بولايته، وعظيم إنصافه وكونه من الصادقين، وعموم بركته وانتفاع من يعرفه به في القيامة عند رب العالمين،

وزهده وعلمه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بلسانه وقلمه وظهور كراماته وتعظيمه لله ورسوله، وتأدبه مع الصالحين في جميع أوقاته، وخدمته بنفسه لشيوخه، ومكاشفاته وتقدمه في الفقه والحديث واللغة والعلوم، وشدة اجتهاده في المطالعة لمنطوق العلوم والمفهوم ومداومة سهره وتهجده وإخلاصه وتعبده وعدم مجادلته ورفع صوته في تقريره ومباحثته، وتمام ورعه وتمنعه في قبول الهدية، وكون المهدى إليه ممن لا يقرأ عليه ولا له معه قضية، وعدم تعاطيه ما يرطب بدنه من ثلج وشهد وتركه جميع ملاذ الدنيا من أكل ولبس وحمام وسائر ما يعتمده المرء في تفكهه وكونه لم يجمع بين أدمين مختلفين إلاَّ في النادر، ومداومته على الصوم وظمأ الهواجر، واقتدائه بالسلف الصالحين إلى غير ذلك مما قل أن يجتمع في غيره من المحققين وإسناده في الفقه وما وقع من تصانيفه عندنا بالسند، وثلاثة أحاديث من طريقه المعتمدة، وتعيين وقت وفاته وما يلتحق بجميع ذلك من تتماته رجاء شمول بركته وإظهاراً لما عندي من محبته، والله المسؤول أن ينفعنا بذلك ويرشدنا إلى أحسن المسالك بمنه وكرمه.

أما نسبه ونسبته، فهو يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام ـ بمهملة ثم زاي ـ محيي الدين أبو زكريا بن الشيخ الزاهد الورع وليّ الله تعالى أبي يحيى الحزامي، نسبة لجده حزام المذكور. وكان بعض أجداد الشيخ يزعم أنها نسبة لوالد الصحابي حكيم بن حزام رضي الله عنه. قال الشيخ: وهو غلط. النووي نسبة لنوى والنسبة إليها بحذف الألف على الأصل، ويجوز كتبها بالألف على العادة.

قلت: وبإثباتها وحذفها قرأته بخط الشيخ، لكن قال الشهاب بن الهائم: أنه بإثباتها خلاف القياس، قال: وأما الألف التي هي بدل من لام الكلمة فلا يجوز حذفها بل يجب قلبها في النسبة واواً كما في النسبة إلى فتى ونحوه، فيقال: نووي كما يقال: فتوى اهـ.

ونوى: قاعدة الجولان الآن من أرض حوران من أعمال دمشق[١]، فهو الدمشقي أيضاً خصوصاً.

وقد أقام الشيخ بدمشق نحواً من ثمانية وعشرين سنة، وابن المبارك رحمه الله يقول: من أقام ببلد أربع سنين نسب إليها.

وكان حزام جده الأعلى نزل الجولان بقرية نوى على عادة العرب فأقام بها

(١) ونوى: بلدة تقع على بُعد ٩٠ كيلومتراً جنوب دمشق.

ورزقه الله تعالى ذرية إلى أن صار منهم عدد كثير.

وأما مولده ونشأته فكان في العشر الأوسط من المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

قلت: وهذا هو المعتمد، لكن قال الجمال الإسنوي: إنه في العشر الأول. قال اللخمي وصح عنه أنه قال: لا أجعل في حل من لقبني محيي الدين. ونشأ كما صرح به الحافظ الذهبي في «سير النبلاء» في ستر وخير اهـ[١].

ولما بلغ من العمر سبع سنين، كان نائماً ليلة السابع والعشرين من رمضان بجانب والده، كما ذكره لي والده، قال: فانتبه نحو نصف الليل وأيقظني وقال: يا أبتي ما هذا الضوء الذي قد ملأ الدار، فاستيقظ أهله جميعاً فلم نر كلنا شيئاً، قال والده: فعرفت أنها ليلة القدر.

وذكر لي وليّ الله الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي قال: رأيت الشيخ وهو ابن عشر سنين بنوى والصبيان يكرهونه على اللعب معهم وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم ويقرأ القرآن في تلك الحال. قال: فوقع في قلبي محبته وكان قد جعله أبوه في دكان فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن. قال: فأتيت معلمه فوصيته به وقلت له: إنه يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم وينتفع الناس به، فقال لي: أمنجم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك. قال: فذكر المعلم ذلك لوالده فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الحلم.

قلت: وما هذا أولى من قول الذهبي: أنه بقي يتعيش في الدكان لأبيه مدة وإن أباه كان دكانياً بنوى مع أنه قد لا ينافيه. وقد ذكر ـ أعني الذهبي ـ في تاريخ الإسلام ياسين هذا، وأشار لما تقدم، فقال ياسين بن عبد الله المقري الحجام الأسود الصالح، كان له دكان بظاهر باب الجابية وكان صاحب كشف وكرامات وقد حج أكثر من عشرين مرة وبلغ الثمانين، اتفق أنه سنة نيف وأربعين مر بقرية نوى فرأى الشيخ محيي الدين النووي وهو صبي فتفرس فيه النجابة واجتمع بأبيه الحاج شرف ووصاه به وحرضه على حفظ القرآن والعلم، فكان الشيخ فيما بعد يخرج إليه ويتأدّب معه ويزوره ويرجو بركته ويستشيره في أموره، توفي في ثالث ربيع الأول سنة سبع وثمانين وستمائة ودفن بمقبرة باب شرقي رحمه الله، وقد أخبر بموت النووي والده وقال: أين تختار أن

(١) انظر: تحفة الطالبين لابن العطار (ص ٤٨)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٤٧٢)، وشذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٣٥٦)، وطبقات الشافعية للإسنوي (٢/ ٤٧٦)، وتوضيح المشتبه (٧/ ٦٥).

يموت، عندكم أو في دمشق. ويقال: إنه قتله بالحال لأمر ثم ندم. انتهى كلام الذهبي.

وفيه أيضاً مخالفة لكلام ابن العطار، وإن كان يمكن الجمع بينهما بأن الشيخ ياسين بعد أن أخبر المعلم شافه بذلك والده أيضاً. وأما قوله: ويقال إنه قتله بالحال فمنكر، وقد استبعده التقي ابن قاضي شهبة حيث قال: وهذا بعيد جداً أن يقع أن مثل النووي يقع منه ما يوجب أن وليَّ الله يتغير عليه حتى يصل إلى قتله، وبعيد من الوليِّ أيضاً قتل مثل النووي. قال: وإنما هذه ـ يعني على تقدير الصحة ـ نزعة شيطانية نعوذ بالله من ذلك، انتهى.

قال الشيخ: فلما كان عمري تسع عشرة سنة قدم بي والدي في سنة تسع وأربعين إلى دمشق فسكنت المدرسة الرواحية.

قلت: واستمر بها حتى مات، لم ينتقل منها حتى ولا بعد ولايته الأشرفية كما قاله التاج السبكي في الطبقات الوسطى، قال: وبيته فيها بيت لطيف عجيب الحال.

قال اليافعي: وسمعت أنه إنما اختار الإقامة بها على غيرها لحلها اهـ.

قال: وبقيت نحو سنتين لا أضع جنبي بالأرض وأتقوت بجراية المدرسة لا غير، قلت: بل كان يتصدق منها أيضاً كما قاله اللخمي. قال: ثم ترك تعاطيها اهـ. وحفظت التنبيه في نحو أربعة أشهر ونصف.

قلت: وعرضه في سنة خمسين فقد قرأت بخط العز القاضي أبي عمر بن جماعة: وقفت على ورقة بخط الحافظ عفيف الدين أبي السيادة المطري أنه شاهد على نسخة صاحبه الفقيه الإمام بدر الدين بن الصائغ الدمشقي الشافعي من كتاب «التنبيه» ما مثاله: «الحمد لله كما هو أهله، عرض علي الفقيه أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي من أول كتاب «التنبيه» في الفقه، هذا وإلى آخره مواضع امتحنت بها حفظه دلت على ذلك وأذنت بتكراره على جمعه وتحصيله وحرصه على العلم، وفّقني الله وإياه له وللعمل به، وذلك في مجلس واحد لسبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وستمائة». كتبه محمد بن الحسين بن رزين الشافعي حامداً مسلماً مستغفراً، وابن رزين هذا هو قاضي القضاة تقي الدين أبو عبد الله كان ممن أخذ عن ابن الصلاح ودرس بالشامية الحسامية وأم بدار الحديث الأشرفية ثم ولي قضاء مصر، وكان كبير القدر، حميد الذكر، مات بعد الشيخ بأربع سنينَ في رجب سنة ثمانين.

قال شيخنا في «رفع الإصر» في ترجمته: روى عنه الدمياطي والبدر بن جماعة

ومن قبلهما الشيخ محيي الدين النووي اهـ، ثم حفظت ربع العبادات من «المهذب» في باقي السنة.

قلت: وأدرج الذهبي في «تاريخ الإسلام» في كلام لابن العطار هنا مما لم أره في النسخة التي وقفت عليها أنه قال: وبقيت أكثر من شهرين أو أقل لما قرأت في التنبيه يجب الغسل من إيلاج الحشفة في الفرج، أعتقد أن ذلك قرقرة البطن، فكنت أستحم بالماء البارد كلما قرقر بطني. انتهى كلام الذهبي والظاهر أن الحياء كان يمنعه السؤال عن ذلك. اهـ.

قال: وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا الكمال إسحٰق المغربي ولازمته فأعجب بي لما رأى من ملازمتي للاشتغال وعدم اختلاطي بالناس وأحبني محبة شديدة وجعلني معيد الدرس بحلقته لأكثر الجماعة، فلما كانت سنة إحدى وخمسين حججت مع والدي، ارتحلنا من أول رجب فحصلت الإقامة بالمدينة النبوية نحواً من شهر ونصف شهر، وكانت الوقفة تلك السنة يوم الجمعة.

وحكى لي والده أنه من حين توجهنا من نوى أخذت الشيخ حمى فلم تفارقه إلى يوم عرفة وهو صابر لم يتأوه قط، فلما تمّ الحج ووصلنا إلى نوى ورجع هو إلى دمشق صب الله عليه العلم صباً[1].

قلت: وكانت هذه حجة الإسلام، وفي كلام الكمال الدميري كما سيأتي أنه حج مرة أخرى ويستأنس له بقول العماد ابن كثير في تاريخه أنه حج في مدة إقامته بدمشق، ولما رجع من حجة الإسلام لاحت عليه، كما قال الذهبي في «سير النبلاء»، أمارات النجابة والفهم. انتهى.

ولم يزل يشتغل بالعلم ويقتفي آثار شيخه المذكور في العبادة من الصلاة وصيام الدهر والزهد والورع وعدم إضاعة شيء من أوقاته لا سيما بعد وفاة شيخه، فإنه زاد في الاشتغال بالعلم والعمل بحيث ذكر الشيخ لي أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، درسين في «الوسيط»[2] وثالثاً في «المهذب»[3] ودرساً في «الجمع بين الصحيحين»، وخامساً في «صحيح مسلم»، ودرساً في «اللمع» لابن جني في النحو، ودرساً في «إصلاح المنطق» لابن السكيت في اللغة، ودروساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه تارة في «اللمع» لأبي إسحاق وتارة في «المنتخب»

---

(١) انظر: تحفة الطالبين لابن العطار (ص ٤٨).
(٢) هو الوسيط في الفقه الشافعي لحجة الإسلام الغزالي، مطبوع بمصر وبيروت.
(٣) هو المهذب في الفقه الشافعي.

للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال ودرساً في أصول الدين، قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليه.

قال: وخطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشتريت القانون وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم على قلبي وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري من أين دخل علي الداخل فألهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه، فبعت في الحال الكتاب المذكور وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب فاستنار قلبي ورجع إليّ حالي وعدت لما كنت عليه أولاً.

قلت: فإن قيل: كيف هذا مع ما نقل كما روينا في «مناقب الشافعي» للبيهقي من طريق الربيع بن سليمان، سمعت الشافعي يقول: العلم علمان، علم فقه للأديان وعلم طب للأبدان، ونحوه عن ابن عبد الحكم عن الشافعي وزاد: وما سوى ذلك فبلغة مجلس. ورواه محمد بن يحيى بن حسان عن الشافعي فقال: وما سوى ذلك من الشعر ونحوه فهو عناء وتعب.

فالجواب: أن الذي مدحه الشافعي رحمه الله هو الطب النبوي أو المجرد عن أصول الفلاسفة الذي صرح صاحب القانون في أوله بابتناء الطب المورد في كتابه عليها وأن الطبيب يتعلم ما يبني عليه من العلم الطبيعي، ولذلك اعترى الشيخ رحمه الله بمجرد عزمه على الاشتغال في الكتاب المذكور ما أشار إليه لما رزقه الله من نور البصيرة وأبداه له بصلاح السريرة خصوصاً وعنده من الطب المحمود ما يفوق الوصف على أن أبا بكر بن طاهر سئل عن معنى قول الشافعي، فقال: عند العوام أن علم الأديان هو ظاهر الفقه وعلم الأبدان هو ظاهر الطب، وعند الحكماء أن علم الأديان هو علم مشاهدة القلوب بالمعاملات بصنع الله وتدبيره، وهو الفقه النافع، وعلم الأبدان هو ظاهر أوامر الله تعالى ذكره، ونواهيه في الحلال والحرام وهو حجة الله على خلقه، وهو الطب النافع، فعلم القلوب عين الإسلام وحقائقه، وعلم الأبدان هو آداب الإسلام وشرائعه.

وقد قال حرملة بن يحيى: إن الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول: ضيّعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى اهـ الإيراد وجوابه.

وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً وهجره النوم إلاَّ عن غلبة وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد إلى الشيوخ. قاله الذهبي في «سير النبلاء» اهـ.

وأول شيوخه في الفقه، كما قال رحمه الله، الإمام المتفق على علمه وزهده وورعه وكثرة عبادته وعظم فضله وتميزه على أشكاله أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي ثم المقدسي(١).

قلت: وكان معظم انتفاعه عليه، اهـ، ثم الإمام العارف الزاهد العابد الورع المتقن مفتي دمشق في وقته أبو محمد عبد الرحمٰن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي ثم الدمشقي ثم الإمام المتقن المفتي أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الإربلي، قال ابن العطار: وقد أدركته وحضرت بين يديه وسمعت عليه رأي الجهم، ثم الإمام العالم المجمع على إمامته وجلالته وتقديمه في علم المذهب على أهل عصره بهذه النواحي أبو الحسن سلار بن الحسن الإربلي ثم الحلبي ثم الدمشقي.

قال ابن العطار: وقد أدركته أيضاً وحضرت جنازته مع شيخنا، أخذ الشيخ عنهم الفقه قراءة وتصحيحاً وسماعاً وشرحاً وتعليقاً.

قلت: وقال القطب اليونيني: أن الشيخ أول ما قدم دمشق اجتمع بالشيخ جمال الدين عبد الكافي، أظنه ابن عبد الملك بن عبد الكافي الربعي الدمشقي خطيب الجامع الأموي وإمامه، وعرفه رحمه الله مقصده، فأخذه وتوجه به إلى حلقة الشيخ تاج الدين عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن ضياء الفزاري عرف بابن الفركاح رحمه الله(٢)، فقرأ عليه دروساً وبقي يلازمه مدة ولم يكن له موضع يأوي إليه فسأل من التاج موضعاً يسكنه ولم يكن بيد التاج إذ ذاك من المدارس سوى الصارمية ولا بيوت لها، فدله على الكمال إسحاق المغربي بالرواحية، فتوجه إليه ولازمه واشتغل عليه وصار منه ما صار.

ونحوه قول التقي ابن قاضي شهبة: ولما قدم النووي من بلده أحضروه ليشتغل عليه، يعني الفزاري، فحمل همه وبعث به إلى المدرسة الرواحية ليحصل له بها بيت ويرتفق بعلومها، قال: ثم إنه كانت بينهما وحشة كعادة النظراء. قال: وكان النووي أنقل للمذهب وأكثر محفوظاً منه. انتهى كلام التقي ولم يذكر سبب الوحشة الذي سبقه الذهبي إلى ذكرها في ترجمة التاج من المعجم المختص حيث قال: وكان بينه وبين

---

(١) هو أبو المعالي إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي المقدسي، الشافعي، من فقهاء الشام وأُدبائهم، قال فيه النووي: أول شيوخي المتفق على علمه وزهده وورعه، وكثرة عبادته وعظم فضله وتميّزه في ذلك على أشكاله، توفي سنة ٦٦٨هـ، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٨)، وشذرات الذهب (٥/ ٢٤٩).

(٢) صاحب شرح الورقات، ورسالة الغنيمة، وهو من فقهاء الشافعية وأئمتها.

النووي رحمهما الله وحشة كعادة النظراء، انتهى كلام الذهبي، وقد ذكره القطب اليونيني فقال: بعد حكاية ما تقدم قريباً واتفق أن الظاهر عندما فتح الفتوحات المشهورة وعمَّ الناس الجواري، وتسروا بهن، سئل التاج فرخص في ذلك وصنف جزءاً في إباحة ذلك من غير تخميس، واستدل بأشياء منها قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر وأعطى منها من لم يشهدها، وربما فضل بعض حاضريها على بعض. ثم نقل بعد ذلك في الغنائم أحوالاً مختلفة تقلب على حسب المصلحة، ثم ذكر غزوة حنين وقسم غنائمها، وأنه ﷺ أكثر لأهل مكة من قريش وغيرهم حتى إنه يعطي الرجل الواحد مائة ناقة والآخر ألف شاة، ومعلوم أنه لم يحصل لكل حاضر في هذه الغزاة مثل هذه العدة من الإبل والشياه، ولم يعط الأنصار شيئاً وكانوا أعظم الكتيبة وجلّ العسكر وأهل النجدة حتى عتبوا، وهذا حديث صحيح مخرج في جميع الأصول المعتمدة من كتب الحديث وليس في شيء من طرقه: «إني إنما نفلت الناس من الخمس أو إني قسمت فيكم ما أوجبه قسم الغنيمة وزدت من استألفته من مال المصالح» وكان ﷺ أعدل الناس في قسمه، وأعدلهم في بيان حق وأحقهم في إزالة شبهة، فلما اقتصر على مدح الأنصار بما رزقهم الله من السابقة في الإسلام وما خصهم به من محبته ﷺ وإياهم وسلوك فجهم دون فج غيرهم، ورجوعهم إلى منازلهم به عوضاً عما رجع به غيرهم من الأموال والأنعام، علم كل ذي نظر صحيح أنه عليه السلام فعل في هذه الغنائم ما اقتضاه الحال من المصالحة من عطاء وحرمان وزيادة ونقصان، ثم لم يعلم بعد هذا الحكم ناسخ ولا ناقض بل فعل الأئمة بعده ما يؤكده.

ثم قال: ولولا خشية الإطالة لتقصينا الآثار الواردة في قسم الغنائم من الأئمة الراشدين ومن بعدهم حتى أن المتأمل المتبع الآثار لو أراد أن يبين أن غنيمة واحدة قسمت على جميع ما يقال في كتب الفقهاء من النفل والرضخ والسلب وكيفية إعطاء الفارس والراجل وتعميم كل حاضر، لم يكد يجد ذلك منقولاً من طريق معتمد واستدل بأشياء كثيرة.

قال القطب: فحصل للناس بقوله خير عظيم لأن الناس لم يزالوا يغنمون ويستولدون الجواري ويبيعوهن فيحكم الحكام بصحة بيعهم وشرائهم وإجراء جميع ما يتعلق بهم على حكم الصحة، ولو فتحوا باب وجوب تخميس الغنائم لحرم وطيء كل جارية تغنم قبل تخميسها لأن نكاح الجارية المشتركة حرام، فيؤول ذلك إلى مفاسد كثيرة.

فلما وقف الشيخ رضي الله عنه على ذلك نقضه كلمة كلمة وبالغ في الرد عليه ونسبه إلى أنه خرق الإجماع في ذلك وأطلق لسانه وقلمه في هذا المعنى.

قال القطب: ولا شك أن الذي قاله النووي هو مذهب الشافعي وغيره إلا أنه لم يعمل به في عصر من الأعصار، ولا قيل إن غنيمة خمست في زمن من الأزمان بعد الصحابة والتابعين ولولا القول بصحة ذلك لكان الناس كلهم بسبب شرائهم الجواري واستيلادهم إياهن في محرم، وسائر عمل الناس قاطبة على ما أفتى به التاج ولم يعمل أحد بما أفتى به الشيخ.

قال: وما كان ينبغي له أن يرد عليه هذا الرد لعلمه أن بعض العلماء ذهب إليه.

قال: وحكي لي أن الفتاوى كانت إذا جاءت إلى الشيخ وعليها خط الشيخ يمتنع من الكتابة فيها. وذكر القطب بعد ذلك كلاماً فيه بعض تحامل مع ما أسلفه من أنه كانت مقاصده جميلة وأفعاله لله تعالى رحمهم الله أجمعين.

ولما ترجم العثماني قاضي منقذ الشهاب أبا شامة عبد الرحمٰن بن إسماعيل الدمشقي قال: وهو من مشايخ الإمام النووي وما رأيته الآن في كلام غيره وليس ببعيد.

وأفاد التاج السبكي في الطبقات الكبرى: أن شيخه في الطريق الشيخ ياسين المراكشي الماضي ويشهد له ما أسلفناه عن الذهبي في ترجمته أن الشيخ كان يخرج إليه ويتأدب معه ويزوره ويرجو بركته ويستشيره في أمور.

ووصفه اللخمي بالعلم بالقراءات السبع لكن لم يتبين عن من أخذها مع أني لم أر الذهبي ولا ابن الجوزي ولا من بينهما ممن أفرد تراجم القراء ذكره فيهم، فالله أعلم، انتهى.

وأخذ فقه الحديث عن الشيخ المحقق أبي إسحٰق إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي الشافعي، شرح عليه «مسلماً» ومعظم «البخاري» وجملة مستكثرة من «الجمع بين الصحيحين» للحميدي، وقرأ على الشيخ الحافظ الدين أبي البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي، «الكمال في أسماء الرجال» للحافظ عبد الغني المقدسي، وعلق عليه حواشي وضبط عنه أشياء حسنة.

قلت: وكذا رأيته علق فوائد على الأنساب لابن الأثير، ولازم، كما قال القاضي عبد القادر في طبقات الحنفية، الإمام المحدث الكبير الضياء بن تمام الحنفي في سماع الحديث وما يتعلق به قال: وعليه تخرج وبه انتفع، انتهى.

وأخذ عن جماعة من أصحاب الحافظ أبي عمرو بن الصلاح علوم الحديث له وقرأ على الفخر المالكي «اللمع» لابن جني، وعلى الشيخ أبي العباس أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي التصريفي «إصلاح المنطق» لابن السكيت بحثاً، وكذا كتاباً في التصريف، قال: وكان لي عليه درس إما في كتاب سيبويه وإما في غيره ـ الشك

مني ـ وقرأ على شيخنا العلامة الجمال أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الجبائي كتاباً من تصانيفه وعلّق عليه شيئاً، وقرأ على العلامة القاضي أبي الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي «المنتخب» للفخر الرازي وقطعة من «المستصفى» للغزالي وعلى غيره غيرهما من كتب الفن.

وسمع الحديث على أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي، وأبي العباس أحمد بن عبد الدائم المقدسي، وأبي محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي، وأبي البقاء خالد النابلسي، والضياء بن تمام الحنفي ـ يعني الماضي ذكرهما ـ وأبي محمد عبد الرحمٰن بن سالم بن يحيى الأنباري والشمس أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، وهو أجلّ شيوخه، وشيخ الشيوخ الشرف أبي محمد عبد العزيز بن أبي عبد الله محمد بن عبد المحسن الأنصاري، والقاضي عماد الدين أبي الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد بن الخراستاني خطيب دمشق، وأبي الفضل محمد بن محمد بن محمد النكري الحافظ، وأبي زكريا يحيى بن أبي الفتح الحراني الصيرفي، وغيرهم.

قلت: منهم الرضي أبو إسحٰق إبراهيم بن عمر بن مصر الواسطي، فإنه سمع عليه «صحيح مسلم» كما ذكر الشيخ في أول شرحه له وأفاد الذهبي أن النجم بن الخباز أورد عنه أول حديث من البخاري، قال: أنا عبد الرحمٰن بن أبي عمر بن قدامة الفقيه، أنا عبد الله بن الزبيدي بسنده فكأنه سمع جميع الصحيح على ابن أبي عمر ولو سمع رحمه الله كما قاله الذهبي في «سير النبلاء» أول قدومه دمشق للحق الرشيد بن مسلمة ومكي بن علان والكبار، ولكنه بقي مدة لا يسمع الحديث اهـ.

وسمعت أنا من معظم شيوخه ومسموعاته الكتب الستة «والموطأ» لمالك و «المسند» للشافعي ولأحمد والدارمي وأبي يعلى و «صحيح أبي عوانة» والسنن للدارقطني وللبيهقي و «شرح السنة» للبغوي و «معالم التنزيل في التفسير» له و «عمل اليوم والليلة» لابن السني و «الجامع لآداب الراوي» و «السامع» للخطيب و «الرسالة» للقشيري و «الأنساب» للزبير بن بكار و «الخطب النباتية» وأجزاء كثيرة غير ذلك.

قلت: منها كما رأيته بخط الشيخ وهو عندي أتبرك برؤيته كل قليل، كتاب «الأربعين» للحاكم على الشيخ خالد النابلسي، وأجزاء من كتاب «المستقصى في فضل المسجد الأقصى»، لأبي محمد القاسم بن علي بن عساكر[١] علي التقي إسماعيل بن

(١) هو الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، من أعظم ما صُنف في موضوعه، وهو مسند، مخطوط بدار الكتب المصرية، به نقص.

إبراهيم بن أبي اليسر في سنة ست وستين وستمائة بجامع دمشق وما علمت اسمه تاماً أم لا، انتهى.

وذكر لي رحمه الله أنه كان لا يضيع له وقتاً في ليل ولا نهار إلاَّ في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة أو مطالعة، وأنه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين.

قلت: وقال القطب التونيني أنه كان كثير التلاوة للقرآن والذكر معرضاً عن الدنيا مقبلاً على الآخرة من حال ترعرعه، انتهى.

ثم إنه اشتغل بالتصنيف والأشغال والإفادة فصنف المنهاج[١]، وشرح «مسلم»[٢]، قلت: وهو عظيم البركة، انتهى.

وقطعة من شرح «البخاري». قلت: انتهى فيها إلى كتاب العلم سماه «التلخيص» اهـ.

وقطعة من شرح «أبي داود»، قلت: وصل فيها إلى أثناء الوضوء سماها الإيجاز، وسمعت أن زاهد عصره الشهاب بن رسلان أودعها يومها في شرحه الذي كتبه على السنن وبنى عليها اهـ.

وقطعة من الإملاء على حديث الأعمال بالنيات، قلت: وسمى بعضهم في تصانيفه كتاب الأمالي في الحديث في أوراق، وقال: إنه مهم نفيس صنفه قريب موته فلا أدري أهو الأول أو غيره اهـ.

وقطعة من الأحكام، قلت: سماها «الخلاصة في أحاديث الأحكام» وصل فيها إلى أثناء الزكاة[٣]. قال ابن الملقن: رأيتها بخطه ولو كملت كانت في بابها عديمة النظير. وقال غيره: إنه لا يستغني المحدث عنها خصوصاً الفقيه، وهذه الخلاصة بخط المؤلف في كتب أوقاف الجمالية اهـ.

والمبهمات[٤]، قلت: اختصر فيها كتاب الخطيب أبي بكر البغدادي الحافظ في

---

(١) هو منهاج الطالبين، وهو من أهم أشهر كتب المذهب، وقد عني باهتمام العلماء وشرحهم، فقد شرح كثيراً، فضلاً عن شرح المصنف نفسه.

(٢) ويُسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، وقد طبع طبعات كثيرة، وله عدة نسخ خطية، بحوزتي ٤ نسخ منهما أهمها نسخة أبي عبد الرحمٰن السلمي، وأبي الخير الإشبيلي.

(٣) طبع في مجلدين بمؤسسة الرسالة، ثم طُبع بدار الكتب العلمية ـ بيروت، في مجلد.

(٤) وهو مطبوع، ويسمى المهمات.

ذلك اهـ، و «رياض الصالحين»[١]، و «الأذكار»[٢]، قلت: وهما جليلان لا يستغنى عنهما، وكان فراغه من «الأذكار» كما رأيته بنسخة مقروءة عليه في المحرم سنة سبع وستين وستمائة، قال: سوى أحرف ألحقها قال: وأجزت روايته لجميع المسلمين اهـ.

والأربعين[٣]، قلت: وفي آخرها الإشارة إلى فوائد فيها اهـ.

و «التبيان في آداب حملة القرآن»، قلت: وهو نفيس لا يستغنى عنه خصوصاً القارىء والمقرىء انتهى[٤].

ومختصره[٥] والترخيص في الإكرام والقيام، قلت: لأهل الفضل ونحوهم، انتهى.

و «الإرشاد في علوم الحديث»[٦]، اختصر فيه كتاب ابن الصلاح ومختصره «التقريب والتبشير في معرفة سنن البشير النذير»[٧].

وطبقات الفقهاء، قلت: اختصر فيها كتاب أبي عمرو بن الصلاح أيضاً في ذلك وزاد عليه أسماء نبه عليها في ذيل كتابه. قال العماد ابن كثير: مع أنهما لم يستوعبا أسماء الأصحاب ولا النصف من ذلك، وهذا هو الذي حدا بي على جمع هذا الديوان ـ يعني طبقاته ـ وفات ابن كثير أيضاً كثير، والعذر عن النووي رحمه الله في ذلك أنه مات عنه مسودة، وبيّضه الحافظ الجمال المزي تلميذه اهـ.

وقطعة كبيرة من تهذيب الأسماء واللغات[٨]، قلت: الواقعة في «المختصر» للمزني و «الوسيط» و «الوجيز» و «التنبيه» و «المهذب» و «الروضة»، مات عنه مسودة فبيّضه المزي أيضاً، انتهى.

و «التحرير في ألفاظ التنبيه»[٩]، قلت: قال ابن الملقن: وما أكثر فوائده على

---

(١) طبعاته لا تُحصى، وقد اختصره السيوطي والدمياطي وغيرهما، وشرحه ابن علامة وغيره.
(٢) كسابقه، وقد اختصر كثيراً كالقسطلاني، يسر الله لنا تحقيقه، وغيرها، وشرحها الشيخ علوان.
(٣) من أجمل الأربعينات الحديثية، وقد شرح كثيراً كابن رجب.
(٤) التبيان كتاب عظيم، طبع بمصر وبيروت والسعودية.
(٥) ويعرف بالبيان.
(٦) طبع.
(٧) طبع عدة طبعات، وعليها حواشي وشروح.
(٨) طبع بمصر في مجلدين، وكذلك طبع ببيروت.
(٩) طبع بيروت ـ دار الفكر.

إعواز بيّنه في جزء، وقال قاضي صفد: وما أكثر فوائده وما أعم نفعه لا يستغني طالب علم عنه، انتهى.

و «دقائق المنهاج»[١]، و «الروضة» مختصر الشرح للرافعي، قلت: وقد زاد فيها تصحيحات واختيارات حسان كما صرح به العماد ابن كثير وكان فراغه من تأليفها كما قرأته بخطه في آخر نسخته الموقوفة بالمدرسة المحمودية وهي في أربعة أجزاء، في يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة، هي كاسمها فيما قاله ابن الملقن، بل سيأتي ذلك في منام عن سيد المرسلين عرض فيها أحكام المذهب، كما قاله الأسنوي، انتهى[٢].

و «المنهاج مختصر المحرر»، للرافعي أيضاً، قلت: وهو عظيم النفع كما صرح به قاضي صفد وله فيه أيضاً تصحيحات واختيارات، وكان فراغه من تأليفه كما رأيته في النسخة التي بخطه في المحمودية أيضاً يوم الخميس تاسع عشر رمضان من السنة، انتهى.

و «المجموع في شرح المهذب»، وصل فيه إلى المصراة، قلت: بل إلى أثناء باب الربا، انتهى[٣]. ودفع لي ورقة بتعيين مواده في تصنيفه وقال لي: إذا انتقلت بالوفاة إلى رحمة الله تعالى فأتممه منها، فلم يقدر لي ذلك. قلت: وليته ذكر أسماءها لمن بعده وإن كان يعلم تعينها من الشرح لكن كان ذاك أسهل وأضبط. وقد سرد السبكي الكتب التي استمد هو منها في تكملته اهـ.

و «العمدة» في تصحيح التنبيه، قلت: قال ابن الملقن: وما أحسنه لكنه أهمل قدره أو أكثر فألحقه من كلامه الأسنوي في التنقيح والتذكرة. وقال غيره: إنه من قديم ما صنّف فلا يعتمد على ما فيه مخالفاً لحديث كتبه، وللقطب محمد بن عبد الصمد السنباطي عليه استدراكات أيضاً، انتهى.

والإيضاح في المناسك[٤]، والإيجاز فيها أيضاً، ومنسك ثالث ورابع وخامس وسادس، قلت: وأحدها خاص بالنسوان[٥] اهـ.

---

(١) طبع بتحقيقنا ـ العلمية ـ بيروت.
(٢) طبعت روضة الطالبين في المكتب الإسلامي، ثم محققة بدار الكتب العلمية ـ بيروت.
(٣) طبع بدار الكتب العلمية، بيروت، بتكملة ابن السبكي والماراني، وعلي معوض، وقد طبع من قبل بمكتبة الإرشاد جدة، بتكملة الشيخ المطيعي، رحمه الله.
(٤) طبع، وشرحه ابن حجر الهيثمي وغيره.
(٥) بحوزتي مخطوطات مصورة لمناسك الحج، ومناسك المرأة للنووي.

ومسألة تخميس الغنائم، قلت: وكان سبب تصنيفها ما أسلفته عن القطب اليونيني، انتهى.

والفتاوى، وقد رتّبها، وقطعة من شرح التنبيه، قلت: وصل فيها إلى أثناء باب الحيض سماه تحفة الطالب النبيه، وهو غير النبذ الذي رأيته في مجلد، فإنه قد شرح فيه مواضع من جميع الكتاب، وهو من أوائل ما صنّف، اهـ.

ومن شرح «الوسيط» قطعة جيدة، قلت: وقد قال ابن الرفعة في المطلب الذي شرح به الوسيط: أنه شرع فيه من أول ربع البيع وأنه جعل ذلك تتميماً لمن سبقه وأنه إذا انتهى من الكتاب استأنف الربع الأول.

قال: فإن حصل المطلوب فبفضل الله ومنّه، وإن عاق عنه عائق فيغني عنه إن شاء الله ما تقدمت الإشارة إليه من كلام الغير فإنه قريب منه أو موافق وكأنه رحمه الله عنى الشيخ نفعنا الله ببركته وهي في جزئين كما قال ابن الملقن، وقال: قد رأيتها ببيت المقدس وبمصر أيضاً وهي الآن موجودة في [.......][1] وسمى ابن الملقن في تصنيفه أيضاً «التنقيح في شرح الوسيط»، وقال: إنه وصل فيه إلى أثناء كتاب الصلاة حسبما وقف عليه بخطه ولا أدري أهو الذي قبله أو غيره. وذكر بعضهم عن التنقيح أنه وصل فيه إلى شروط الصلاة، قال: وهو كتاب جليل من أواخر ما صنّف جعله مشتملاً على أنواع متعلقة بكلام الوسيط ضرورية كافية لمن يريد المسائل الموجودة والمرور على الفقه كله في زمن قليل، ولتصحيح مسائله وتوضيح أدلته وذكر أغاليطه وحل إشكاله وتخريج أحاديثه وذكر شيء من أحوال الفقهاء المذكورين فيه إلى غير ذلك من الأنواع التي التزمها، ولم يتعرض فيه لفروع غير فروع الوسيط وهي طريقة تعسر معها تدريس الوسيط كل عام مرة، وقد كان بعض الأشياخ يفعل ذلك ولا يتعرض لفرع زائد، ويقول: إنه يقبح لمن يتصدى للإفتاء والتدريس أن يكون عهده بباب من أبواب الفقه أكثر من عام، انتهى.

والتحقيق في الفقه وصل فيه إلى أثناء باب صلاة المسافر، قلت: هو كما قال ابن الملقن: نفيس، قال: وكأنه مختصر شرح المهذب الماضي، وقال غيره: إنه ذكر فيه مسائل كثيرة محضة وقواعد وضوابط لم يذكرها في الروضة، وقال في مقدمته: حصل عندي نحو مائة مصنف من كتب أصحابنا، اهـ إلى غير ذلك من المسودات.

ولقد أمرني مرة ببيع نحو من ألف كراس بخطه، وأمرني بالوقوف على غسلها

---

(١) ما بين [] بياض بالأصل.

في الوراقة، فلم أخالف أمره وفي قلبي منها حسرات.

قلت: ومن تصانيفه أيضاً، كتاب «جامع السنة»، شرع في أوائله وكتب منه دون كراسة، و «مختصر صحيح مسلم» توقف ابن الملقن في نسبته له قال: وكأن مصنفه أخذ تراجمه من شرح «صحيح مسلم» له وركب عليها متونه وعزاه إليه، ومختصر «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، لابن الأثير، كما نبه عليه في مصنفه التقريب، و «بستان العارفين» في الزهد والتصوف بديع جداً[١] وأجوبة عن أحاديث سئل عنها في دون كراس، ومناقب الشافعي التي لا يسع طالب العلم أن يجهلها اختصر فيها كتاب «البيهقي»[٢] الحافل في ذلك بحذف الأسانيد وهي في مجلد، وحزب أدعية رأيته بمكة[٣]، و «دقائق الروضة» وصل فيها إلى أثناء الصلاة، وهي نفيسة، سماها «الإشارات لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات»، و «مختصر التذنيب» للرافعي[٤]، سماه «المنتخب»، وقد أسقط منه في آخر الفصل السادس أوراقاً تزيد على الكراس فلم يختصرها، و «مختصر التنبيه» كتب منه ورقة، و «مهمات الأحكام»، قال بعضهم: وهو قريب من التحقيق[٥] في كثرة الأحكام لكنه لم يذكر فيه خلافاً وصل فيه إلى أثناء طهارة البدن والثوب، والأصول والضوابط[٦] وهي أوراق لطيفة تشتمل على شيء من قواعد الفقه وضوابط لذكر العقود اللازمة والجائزة وما هو تقريب أو تحديد، ونحو ذلك، ومشكلات الوسيط.

لكن قال الأسنوي: نسب ابن الرفعة إليه كتاباً في أغاليط الوسيط يشتمل على خمسين موضعاً بعضها فقهية وبعضها حديثية، وليس هو له وإنما هو لشخص حموي[٧]، وكذا قال ابن الملقن: الظاهر أنها ليست له وإن عزاها إليه صاحب المطلب وغيره، يعني كالكمال الأدفوي، فإنه سماه البدر السافر من تصانيفه مع إشكالات على المهذب، وقال: إنهما لم يكملا وزعم غيره أنه كامل حيث ذكر في تصانيفه إيضاح الأغاليط الموجودة في الوسيط كامل في كراريس، والله أعلم.

---

(١) وهو يدل على تصوفه وزهده.

(٢) يعني مناقب الشافعي.

(٣) وهو مطبوع ضمن جامع الأوراد الكبير، وقد شرحه سيدي مصطفى بن كمال البكري قدس الله سره.

(٤) طبع التذنيب مع الوجيز لأول مرة ـ بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) طبع محققاً، وقد وصل فيه المصنف إلى الصلاة.

(٦) منه نسخة ضمن مجموع بدار الكتب المصرية، وهو مطبوع.

(٧) طبع ضمن الوسيط للغزالي رضي الله عنه بدار السلام، مصر.

وكذا سمى فيها أغاليط المهذب وقال: فيه فوائد والغاية في الفقه، قال ابن الملقن: وعندي أنها ليست له وإن كانت له فلعلها مما صنفه في أول أمره وسماها غيره «النهاية في الاختصار للغاية»، وجزم الأسنوي بأنها ليست له. و «مختصر البسملة» لأبي شامة، رأيته بخطه وهو في شرح المهذب بتمامه ومسألة نية الاغتراف، ومختصر آداب الاستسقاء ورؤوس المسائل وتحفة طلاب الفضائل ذكر فيه من التفسير والحديث والفقه واللغة وضوابط ومسائل من العربية وغير ذلك جليل في معناه، وأفرد من شرح المهذب أدب المفتي والمستفتي وهو نفيس وقد سبقه لتصنيف هذا أبو عمرو بن الصلاح ومن قبله أبو القاسم الصيمري، وفتاوى أخر رتبها بخطه مما لم يذكر في فتاويه.

فهذه نحو من خمسين تصنيفاً، كل ذلك كما قال الكمال الأدفوي، في زمن يسير وعمر قصير اهـ. وعمَّ النفع بتصانيفه وانتشر في الأقطار ذكرها وأكبوا على تحصيلها حتى رأيت من كان يشنؤها في حياته مجهداً في تحصيلها والانتفاع بها بعد مماته.

قلت: قال اليافعي: ولقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من نظرات الحق سبحانه وتعالى بعد موته فظهرت بركتها على كتبه فحظيت بقبول العباد والنفع في سائر البلاد.

وقال العثماني قاضي صفد في ترجمته من طبقات الشافعية له: سمعت الخطيب جمال الدين محمود بن جملة الخطيب بالجامع الأموي يقول بحضرة جماعة من مشايخ العصر أنه سمع من شخص يخاطبه وهو بين النائم واليقظان: أن الله أفاض على النووي في قبره فيضاً صرف ذلك الفيض إلى كتبه فمن ثم شاعت وذاعت اهـ. وحفظ المنهاج بعد موته خلائق أثنى حجة العرب الحمال بن مالك على حسن اختصاره وعذوبة ألفاظه حتى قال لي: والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت لحفظته. وامتدحه شيخنا الأديب الفاضل الرشيد أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقي شيخ الأدب في وقته بأبيات وقف عليها الشيخ بخطه، فقال:

إعتنى بالفضل محبي فاغتنى ... عن بسيط بوجيز نافع
وانحلى بتقاه فضله ... فتحلى بلطيف جامع
ناصب أعلام علم جازماً ... بمقال رافعاً للرافعي
فكان ابن صلاح حاضراً ... وكأن ما غاب عنا الشافعي

قلت: وقال فيه الأسنوي أيضاً:

يا ناهجاً منهاج خير ناسك ... دقت دقائق فكره وحقائقه

بادر لمحيي الدين فيما رمته ... يا حبذا منهاجه ودقائقه

وقال غيره:

إن رمت فقهاً صافياً كالعاج ... فعليك يا ذا الذهن بالمنهاج
فيه الصحيح مع الفصيح وعمدة الـ ... ـمقياس والحكام والحجاج
من قاسه بسواه مات وذاك من ... غبن ومن حسد وشر مزاج

وللبرهان الجعبري:

للّه درّ إمام زاهد ورع ... أبدى لنا من فتاوى الفقه منهاجاً
ألفاظه كعقود الدر ساطعة ... على الرياض تزيد الحسن إبهاجاً
فاسلكه تحظ بأحكام تنيف على ... علم المحرر تأويباً وإدلاجاً
وانهل الروضة الغناء زاهرة ... بحراً من الفقه عذب الورد ثجاجاً
أحيى لنا الدين (محييه) فألبسه ... بما تنوع من تصنيفه تاجاً
ثوب حتى يرى يحيى وثم له ... نوراً يسير به في العرض ثجاجاً
بوّأه ربك في الفردوس منزلة ... مع الذي نال في مسراه معراجاً

وقال شاعر العصر الشمس النواحي:

يمم حمى النووي ولذ بعلومه ... وأنخ بروضته تفز بحقائقه
واصرف لها ساعات وقتك ترتقي ... درجاً إلى منهاجه ودقائقه

وقال التقي السبكي في أول القطعة التي شرحها ما نصه: هذا الكتاب في هذا الوقت هو عمدة الطلبة وكثير من الفقهاء في معرفة المذهب اهـ كلام السبكي.

وممن علمته شرحه من الأئمة، البهاء أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عوام السكندري والد المتقي محمد، ففي ترجمته أنه علق على المنهاج، والكمال أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن الرملكان الدمشقي، والبرهان إبراهيم بن التاج عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن الفركاح، علق كل منهما عليه تعليقاً كما رأيته في ترجمتهما وأن أولهما سمى شرحه، السراج الوهاج في إيضاح المنهاج، وقطعته جيدة وفي أوقاف كتب الباسطية لابن الفركاح، عليه نكت صغيرة الحجم سماها بعض غرض المحتاج، وشرحه المجد أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز الزنكلوني نحو شرحه على التنبيه في الحجم لكن ذاك أحسن من هذا، وكذا شرحه الشيخ نور الدين فرج بن أحمد بن مجد الأردبيلي كتب منه ست مجلدات وهي بالمدرسة المحمودية، والشيخ

تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي سماه الابتهاج[١]، لكنه لم يكمل وصل إلى الطلاق ثمانية أجزاء وشرع ولده البهاء أبو حامد أحمد في إكماله فمات قبل أن يتم أيضاً، وكذا كمل على السبكي من المتأخرين الشيخ نور الدين محمود بن أحمد بن محمد الحموي، عرف بابن خطيب الدهشة[٢]، وما أعرف هل تم أم لا، وكتب عليه الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن لؤلؤ بن النقيب شرحاً لم يكمل ولا اشتهر، ونكتاً كملت وانتفع بها وهي كثيرة الفائدة، والشيخ جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي وما أحسنه وأتقنه لكنه لم يكمل وصل فيه إلى المساقاة فكمل عليه الشيخ بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي ثم استأنف فصار شرحه مستقلاً لكن التكملة أكثر تداولاً، وللبدر عليه أيضاً الديباج في مجلد[٣]، وكذا كمل على الأسنوي تلميذه الشيخ زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغي، ثم استأنف أيضاً فيما أظن فصار شرحه مستقلاً والقاضي عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد إبراهيم بن جماعة تكلم على مواضع فيه.

وقال الولي العراقي إنه صنف عليه شرحاً لم يكمله، والعماد أبو الفداء إسماعيل بن خليفة الحناتي له شرح في عشر مجلدات فيه نقول كثيرة وأبحاث نفيسة لكنه كما قال ابن قاضي شهبه: لم يشتهر لأن ولده لم يمكن أحداً من كتابته فاحترق غالبه في الفتنة. قال: ورأيت منه مجلداً بخط الأذرعي وكأنه كتب لنفسه منه نسخة وهو ينقل غالب ما فيه من النقول والبحوث في العون، والجمال محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشرشي في أربعة أجزاء اختصره من شرح الرافعي الصغير، والشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد أن الأذرعي له «غنية المحتاج»، و «قوت المحتاج» وحجمهما متقارب وفي كل منهما ما ليس في الآخر إلاَّ أنه كان في الأصل وضع أحدهما لحل ألفاظ الكتاب فقط فما انضبط له ذلك بل انتشر جداً، وشرح قطعة منه القاضي برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم بن البدر بن جماعة في مجلد رأيته بخطه، وشرحه الشرف أبو الروح عيسى بن عثمان العديمي مصنف أدب القضاء في كبير نحو عشر مجلدات، وصغير في مجلدين لخصه من كلام الأذرعي مع فوائد كثيرة من الأنوار وله شرح ثالث متوسط بينهما، والشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي ابن الملقن في كبير عدم وسماه، كما قال قاضي صفد فيما أرسل به إليه، جامع الجوامع

---

(١) طبع ببيروت.

(٢) صاحب مختصر قواعد العلائي، طبع بتحقيقنا، دار الكتب العلمية.

(٣) هو الديباج شرح المنهاج للزركشي، بحوزتي جزء منه، وهو عدّة مجلدات.

وأنه نحو ثلاثين جزءاً ومتوسط سماه العمدة ومختصر سماه العجالة، وله أيضاً نهاية المحتاج لتوجيه المنهاج قدر المتن وخرج أحاديثه وضبط لغاته[١] وغير ذلك.

والشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان البلقيني كتب على ربع الخراج كتابة أطال فيها النفيس في خمس مجلدات، وكذا كتب منه قطعاً غير ذلك، من ذلك من النكاح نحو مجلد، والشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن العماد الأقفهسي في مطوله لم يوجد منه الآن سوى قطعة يسيرة تنتهي إلى صلاة الجماعة في ثلاث مجلدات، ومختصر في مجلدين، والشيخ كمال الدين محمد بن موسى الدميري في أربع مجلدات[٢] ضمنه فوائد كثيرة خارجة عن الفقه. قال في خطبته: وأول من شرحه الشيخ الإمام العلامة تقي الدين السبكي بسبك أتريره، ثم شيخنا الشيخ جمال الدين لخصه بعبارته الوجيزة، ثم العلامة شيخنا الشيخ سراج الدين بن أبي الحسن فبين من أدلته الصحيح والغريب والحسن ونقى شرحه ولغاته عن الطرف الوسن، ثم شرحه العلامة الأذرعي فسكت ونكت، ثم النقاب ابن النقيب نقب عليه ونكت فكان كالجدول من البحر المحيط والخلاصة من البسيط والوسيط، ثم علق عليه أئمة من علماء العصر كتبوا فأحسنوا ما صنفوا وقوم أطنبوا وقوم تمموا فتعبوا وأتعبوا، وكل منهم عادت عليه بركة علامة نوى فبلغ وهدى ولكل امرىء ما نوى.

وقل من جد في أمر يحاوله   واستصحب الصبر إلاَّ فاز بالظفر

انتهى كلام الدميري. وقد ظهر مما قلناه أن السبكي ليس أول من شرحه، نعم إن كان بالنظر إلى الوفاء بالمقصود فالأولية صحيحة، ثم إن في تقديمه لابن الملقن على الأوزاعي مع الإتيان بثم، إشارة إلى أنه وإن تأخرت وفاته عن الأذرعي فإنه صنف شرحه قديماً في أيام شيخه الأسنوي، حتى إن الأذرعي وقف عليه واستفاد منه واعترض عليه في مواضع، وأما تعيين من أبهم فيمكن أن يكون أشار إلى البدر الزركشي والمراغي أو أحدهما والله أعلم.

وفي ترجمة القاضي فخر الدين محمد بن محمد بن أسعد القاياني، حدثتنا شيختنا أم هانىء الهورسية والدة العلامة سيف الدين الحنفي بارك الله في حياته لأمها من معجم شيخنا، أنه حفظ المنهاج وكتبه بخطه وكتب عليه مع قلة بضاعته، وشرحه أيضاً الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن الخضر العيزري في شرحين، أحدهما «كنز المحتاج إلى إيضاح المنهاج»، والآخر «السراج الوهاج في حل المنهاج»، وشرح

(١) هو نهاية المحتاج لأدلة المنهاج، طبع في مجلدين، بيروت.
(٢) توجد منه عدة مجلدات مصورة بمعهد المخطوطات العربية، ناقص الأجزاء.

فرائضه الجمال يوسف بن الحسن بن محمد الحموي خطيب المنصورية وهو في مجلد عند العلامة النجم بن حجي بورك في حياته وشرحه الجمال عبد الله بن محمد بن طيمان الطيماني اختصره من شرح الشرف العمري، وكذا كتب عليه ملخصاً من الأذرعي وغيره شيئاً لم يشتهر لغلاقة لفظه واختصاره. وكتب على خطبته شرحاً مطولاً الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عماد، عرف بابن الهائم الفرضي، والشيخ عز الدين محمد بن أبي بكر بن جماعة عليه زاد «المحتاج في نكت المنهاج» و «منهج المحتاج في نكت المنهاج» و «بغية المحتاج إلى نكت المنهاج»، و «القصد الوهاج في حواشي المنهاج»، و «المنهج الوهاج في شرح المنهاج»، و «وسائل الابتهاج في شرح المنهاج»، و «منبع الابتهاج في شرح فرائض المنهاج»، و «السبيل الوهاج في شرح فرائض المنهاج»، وغير ذلك مما وجد منه شرح الخطبة، وأماكن معرفة عند ابن حجي المذكور، وشرحه الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرح العدي في ثلاثة أسفار، ورأيت في طبقات ابن قاضي شهبة أنه كتب عليه قطعة مطولة في مجلدين إلى الصلاة فأظنه غير الأول، وعمل عليه نكتاً القاضي جلال الدين البلقيني لكنها لم تكمل وصل إلى الخراج، وشرحه الشيخ برهان الدين أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد بن عيسى بن خطيب عذراء غالبه مأخوذ من الرافعي ومن فوائد غريبة، والتقى أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن الحصني في خمس مجلدات، وفقيه الشام التقي أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة وكتب على خطبته، وإلى التيمم الشيخ العلامة القاضي شمس الدين محمد بن علي القاياتي وعلى مناسكه ومواضع منه شيخنا شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر رحمه الله، وعلى جميع الكتاب شيخي الشرف أبو الفتح محمد بن أبي بكر المداعي ولد الماضي، والشيخ المحقق جلال محمد بن أحمد المحلى وهو مختصر في مجلد في غاية التحرير، وشرع فقيه المذهب الشرف المناوي في شرح مطول عليه فكتب منه قطعة، وآخرون هم الآن في مبدأ الحياة بمصر والشام كثّر الله منهم وأبقاهم ليؤخذ عنهم العلم.

وكذا بلغني أن لابن صوراء ونور الدين البكري عليه شرحين لم يكملا فتجر أمرهما، ويقال: إن الذي لابن صوراء إنما هو الجمع بينه وبين الحاوي سماه «الابتهاج»، ونظمه الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان الموصلي، والعلامة الشهاب أحمد بن ناصر التاغوني قاضي دمشق ووالد قاضيها جمال الدين يوسف بارك الله في حياته، ونظم فرائضه فقط ناصر الدين محمد بن محمد بن يوسف المبدلي عرف بابن سويدان سماه «وجهة المحتاج ونزهة المنهاج»، واختصره الشيخ أثير الدين أبو حيان الأندلسي وسماه «الوهاج»، وكتب عليه

مضموماً مع التنبيه الشيخ تاج الدين أبو نصر السبكي في «التوشيح»[١]، وكذا الشيخ ولي الدين أبو زرعة العراقي وأضاف إليهما الحاوي، ومن وفور جلالته وجلالة مؤلفه انتساب جماعة ممن حفظه إليه فيقال له: المنهاجي، وهذه خصوصية لا أعلمها الآن لغيره من الكتب.

وحكى لي صاحبنا الزين عبد الرحمٰن بن أحمد الهمامي الدمشقي الحنفي أن أخاه الشمس محمد القدسي حصل له توعك في صغره أدى إلى خرسه حتى بلغ السنة السادسة، وأن والدهما توجه به إلى الشيخ عبد الله العجلوني أحد جماعة التقي الحصني، وإمام جامع ابن منجك بالقبيبات ملتمساً بركته ودعاءه فدعا له وبشره بالعافية وألزمه بأن يجعله شافعياً يقرئه المنهاج بقصد بركة مؤلفه مع كون سلفه وإخوته كلهم حنفية، فامتثل ذلك فعوفي عن قريب وحفظ القرآن والمنهاج في أربع سنين وهو الآن عين الدماشقة في كتابة المصاحف. وكتابه «شرح المهذب» لم يصنّف في المذهب على مثل أسلوبه.

قال الأسنوي وابن الملقن: وليته أكمله وانخرمت باقي كتبه، وبه عرف مقداره. وقال الذهبي أنه في غاية الحسن والجودة. وقال العماد بن كثير في تاريخه: إنه لو كمل لم يكن له نظير في بابه فإنه أبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاد وحرر الفقه في المذهب وغيره، والحديث على ما ينبغي واللغة والعربية وأشياء مهمة لا أعرف في كتب الفقه أحسن منه. قال: على أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة تزاد عليه وتضاف إليه.

وقال في «طبقات الشافعية»: سلك فيه طريقة وسطة حسنة مهذبة سهلة جامعة لأشتات الفضائل وعيون المسائل ومجامع الأوائل ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ ومسالك الأئمة الحفاظ، وبيان صحة الحديث من سقمه ومشهوره ومن عكسه. وبالجملة فهو كتاب ما رأيت على منواله لأحد من المتقدمين ولا حذى على مثاله متأخر من المصنفين، وقال العثماني قاضي صفد: إنه لا نظير له لم يصنف مثله ولكنه ما أكمله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله إذ لو أكمله ما احتيج إلى غيره وبه عرف قدره واشتهر فضله.

وقال التقي السبكي في أول التكملة التي عملها تلوه وقد وصف المؤلف بالشيخ الإمام العلامة علم الزهاد قدوة العباد أوحد عصره وفريد دهره محيي علوم الأولين وممهد سنن الصالحين أن بعضهم طالت ـ يعني في تكملة «شرح المهذب» ـ رغبته إلي

(١) مجلد ضخم، يسَّر الله تحقيقه.

وكثر إلحاحه عليَّ وأنا في ذلك أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وأسهل الخطب وأراه شيئاً أمراً، وهو في ذلك لا يقبل عذراً، وأقول: قد يكون تعرضي لذلك مع قصوري عن مقام هذا الشارح إساءة إليه وجناية مني عليه، وأني أنهض بما نهض به وقد أسعف بالتأييد وساعدته المقادير فقربت منه كل بعيد، ولا شك أن ذلك يحتاج بعد الأهلية إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: فراغ البال واتساع الزمان، وكان رحمه الله قد أوتي من ذلك الحظ الأوفى بحيث لم يكن له شاغل عن ذلك من تعيش ولا أهل.

والثاني: جمع الكتب التي يستعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء، وكان رحمه الله تعالى قد حصل له من ذلك حظ وافر لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت.

والثالث: حسن النية وكثرة الورع والزهد والأعمال الصالحة التي أشرقت أنوارها، وكان رحمه الله تعالى قد اكتال من ذلك بالمكيال الأوفى.

فمن تكون اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث أنى يضاهيه أو يدانيه من ليست فيه واحدة منها، إلى أن قال: وقد استخرت الله تعالى وقلت في نفسي: لعل ببركة صاحبه ونيّته يعينني الله تعالى عليه إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فإن من الله بإكماله فلا شك أن ذلك من فضل الله تعالى وبركة صاحبه ونيّته إذ كان مقصوده النفع للناس ممن كان. انتهى كلام السبكي وانتهت كتابته كما رأيته بخطه في أربع مجلدات إلى التفليس.

ولم يتهيأ إكماله لأحد ممن انتدب لذلك لا العماد إسماعيل الحسباني ولا التاج السبكي ولا الشهاب ابن النقيب ولا السراج البلقيني، وسماه النبوغ في تكملة المجموع، كتب منه مجلداً من النكاح ولا الزين العراقي ولا ولده رحمة الله عليهم أجمعين. وعدّ ذلك من كرامات مؤلفه، وكتب الكمال جعفر الأدفري على مقدمة «شرح المهذب» أشياء حسنة وزاد أموراً مهمة وشرع شيخنا في نكت عليه فكتب يسيراً من أوائلها.

وأما «الروضة» فقد انتدب لاختصارها القطب محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي لكنه لم يكمل، والشمسان محمد بن المنعم المنفلوطي ومحمد بن أحمد بن عبد المؤمن بن اللبان، لكنه لم يشهر لغلاقة لفظه. والنجم عبد الرحمٰن بن يوسف الأصفوني والجمال محمد بن أحمد بن محمد الشريشي، وفتح الدين محمد بن علي بن إسماعيل البستاني قاضي المرتاحية في مجلدين لطيفين، وكان حياً في سنة

أربع وتسعين، والشرف أبو الروح عيسى بن عثمان العمدي مصنف أدب القضاء اختصرها مع زيادات كثيرة أخذها من المنتقى وغيره، والزين أبو العباس أحمد بن الشيخ ناصر الدين محمد بن أحمد بن محمد البكري، جد القاضي جلال الدين دام النفع به وهو بمدرسة الجمال ناظر الخواص كما ذكره لي حفيده وأنه سماه «عمدة المفيد وتذكرة المستفيد».

قال: واختصرها من قبله والده لكنه لم يكمل، وكذا اختصرها الشمس محمد بن علي بن جعفر البلالي ومحيى الدين أحمد بن النحاس نزيل دمياط لكنه لم يكمل أيضاً، والشرف بن المعري اليماني في الروض وقد كثر تداوله في هذا التاريخ، والشهاب بن رسلان المقدسي، وهو عند صاحبنا الشيخ زين الدين بن قاضي عجلون والشمس محمد بن محمد بن أحمد الحجازي. وأفرد المجد الزنكلوني زوائدها ووصف الشيخ في أولها بالإمام الأجل الفاضل الكامل الورع مفتي الشام علامة عصره محيي الدين أبو زكريا نور الله ضريحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه. وكتب عليها نكتاً على قدر المنهاج النشائي وهي في كتب النجم بن حجي، وكتب عليها الشيخ سراج الدين البلقيني حواشي جردها البدر الزركشي قديماً ورأيته بخطه، واستدرك شيخنا عليه بخطه ما تجرد بعد تجريده من الحواشي، وجردها أيضاً الولي العراقي، وكذا لولده القاضي جلال الدين عليها حواشي أيضاً جردها أخوه شيخنا القاضي علم الدين وجمع بينها وبين حواشي والدهما رحمة الله عليهم، وشرح قطعاً منها شيخنا العسقلاني في آخرين ممن كتب عليها مضمومة مع الشرح الكبير أصلها، كالأسنوي والأذرعي والزركشي، وكذا من المتأخرين فقيه طرابلس الشمس محمد بن يحيى بن أحمد بن زهرة، وكان للزين أبي حفص عمر بن أبي الحرم بن الكسائي على نسخته بالروضة حواشي لأنه ولع في آخر عمره بمناقشاته، وقد جرد هذه الحواشي بعض أصحابه من غير علمه وليس فيها كبير طائل، بل في غالبها تعنت، وقد وقف التقي السبكي على بعضها، وأجاب عن كلامه.

وأثنى على «الروضة» الأئمة، فقال الأذرعي في أول التوسط: هي عمدة اتباع المذهب في هذه الأمصار بل سار ذكرها في النواحي والأقطار فصارت كتاب المذهب المطول، وإليها المفزع في النقل وعليها المعول، فإليها يلجأ الطالب النبيه وعليها يعتمد الحاكم في أحكامه، والمفتي في فتاويه، وما ذاك إلاً لحسن النية وإخلاص الطوية، غير أنه رحمه الله اختصرها من كتاب الإمام الرافعي رحمه الله من نسخ فيها سقم فجاء في مواضع منها خلل، فإنه اعتمد في اختصاره على نسخة الإمام البادر أي التي بحران مدرسته بدمشق المحروسة وفيها سقم واستعان عليها بنحوها فحصل بذلك

نقص وخلل يخفى على المبتدي ويشكل على المنتهي، وكان مع ذلك رحمه الله تعالى كالسائق المجد حتى قيل إن تصنيفه بلغ في كل يوم كراستين أو أكثر فهو كما قال القائل:

وطويل باع الهم قد قعدت   له غرماؤه رصداً بكل طريق
فإذا ونى أذكرته قصر المدى   ورضى السبوق وخجلة المسبوق

إلى أن قال: واعلم وفّقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يتقيه حق تقاته أني لم أقصد بما أشرت إليه الاعتراض على الشيخ ولا التعقب لكلامه بالتوهم والإزراء معاذ الله، وإنما أردت النصيحة له وللمسلمين وإفادة المتعلمين، فلقد كان من أحرص الناس على ذلك وبذل وسعه فيه وإنما سبب ما اتفق له من ذلك ما أشرت إليه ودللتك عليه، هذا مع استغراقه أكثر الأوقات بالطاعات والأوراد والأعمال الزكيات، ولو تأمل ذلك بعض التأمل لوضح لديه وبرهن عليه، ولكنه كان كالجواد المسرع في ميدانه، ولقد حكي عنه أنه كان يكتب حتى تكل يده فتعجزه فيضع القلم ثم ينشد:

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة   على غير سعدى فهو دمع مضيع

وهذا منه رضي الله عنه من باب قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٠، ٦١].

قال الحسن رحمه الله: كانوا يعملون أعمال البر ويخشون أن لا تتقبل منهم، ولقد حكي عنه رحمه الله أنه همَّ قبل وفاته بقليل لغسل الروضة كما غسل نحو ألف كراسة من تعليقاته فقيل له: قد سارت بها الركبان، فقال: في نفسي منها أشياء، أو كما قال، ولم تتفق له مراجعتها وتحريرها بل هجمت عليه المنية قبل إدراك الخمسين فرضي الله عنه وعن جميع عباده الصالحين، فإنه من أمن الأصحاب علي في سلوك المذهب، فمن كتبه تفقهت وبكلامه بصرت، وفي منهاجه سلكت، وبدعائه انتفعت.

وذلك أنه كان قد حصل لي فترة عن الطلب في حدود الثلاثين وسبعمائة مدة مديدة، فرأيت كأني أسير على غير جادة، ثم حانت مني التفاتة إلى جهة القبلة فإذا خلق كثير مشاة عليهم ثياب بيض نفيسة، فوقع لي أنه الشيخ وأتباعه فنزلت عن دابتي ومشيت معهم على الجادة نحو دمشق، فما هو إلاَّ ونحن بميدان الحصى وإذا شخص من أقاربي قد تلقاني فسلم عليَّ وأطال وقوفه معي، فالتفت فلم أر منهم أحداً فلمته وجعلت أقفو آثارهم وأسأل عن سبيلهم، فأرشدت إليه حتى صرت بين الناس التي بين المدينة والصالحية، وإذا بيسير من ذلك الجمع منقطعين في الطرقات، فمن جالس

مسند ظهره إلى جدار، ومن ماد ساقيه من الإعياء، ومن مضطجع ومستلق بأن كالمريض، فجعلت أدوس ثياب بعضهم أو شيئاً من بدنه من شدة الإسراع إلى أن بلغت المدرسة الشبلية الحنفية المشهورة، وإذا بالشيخ ومعه رجلان فقط، فلما قربت منهم التفت فرآني فالتمست منه الدعاء، وأقسمت عليه فتبسم وسعى وحده نحوي خطوات ثم أخذ في الدعاء لي، فالتفت فإذا والدي رحمه الله واقف يؤمن على دعائه، ثم انصرف إلى صاحبيه ومضوا فاستيقظت مسروراً وراجعت طلب المذهب. ثم ظهر لي أثر الرؤيا صبيحتها كفلق الصبح، وذلك أن القريب الذي أوقفني عنهم يقرب إلى بعد الرؤيا بأيام واجتهد في صحبتي وملازمتي بحيث لا يفارقني في أغلب الأوقات ويحول بيني وبين الطلب، إلى أن درج إلى رحمة الله فتماثل الحال فكانت تلك الوقفة معه في المنام ما ذكرته، فرحمه الله وإيانا.

ثم إني أكببت على تحصيل مؤلفات الشيخ والنظر فيها، فرأيت من قضاء حقه أن أنبه على ما يتفق لي العثور عليه في روضته وغيرها، وكذا أثنى على الروضة بل وعلى سائر تصانيفه التاج السبكي، حيث قال في طبقاته الكبرى ما نصه: لا يخفى على ذي بصيرة أن لله تعالى بالنووي عناية وبمصنفاته، واستدل على ذلك بما يقع في ضمنه فوائد حتى لا تخلو ترجمته عن العوائد.

فأقول: ربما غير لفظاً من ألفاظ الرافعي إذا تأمله المتأمل استدركه عليه، وقال: لم يف بالاختصار ولا جاء بالمراد ثم يجده عند التنقيب قد وافق الصواب ونطق بفصل الخطاب، وما يكون من ذلك عن قصد منه لا يعجب منه فإن المختصر ربما غير كلام من يختصر كلامه لمثل ذلك، وإنما العجب من مغير يشهد العقل بأنه لم يقصد إليه ثم وقع منه على الصواب.

وله أمثلة، منها، قال الرافعي في كتاب الشهادات في فصل التوبة عن المعاصي العقلية في التائب: إنه يختبر مدة يغلب على الظن فيها أنه أصلح عمله وسريرته، وأنه صادق في توبته، وهل تقدر تلك المدة؟ قال قائلون: لا، إنما المعتبر حصول غلبة الظن بصدقه، ويختلف الأمر فيه بالأشخاص وأمارات الصدق، وهذا ما اختاره الإمام والعبادي وإليه أشار صاحب الكتاب بقوله: حتى يستبرأ مدة فيعلم إلى آخره، وذهب آخرون إلى تقديره.

وفيه وجهان، قال أكثرهم: يستبرأ سنة، انتهى بلفظه، فإذا تأملت قوله: قال أكثرهم، وجدت الضمير فيه مستحق العود على الآخرين الذاهبين إلى تقديرها لا إلى مطلق الأصحاب فلا يلزم أن يكون أكثر الأصحاب على التقدير فضلاً عن التقدير سنة، بل المقدر بعضهم.

واختلف المقدرون في المدة، وأكثرهم على أنها سنة، فهذا ما يعطيه لفظ الرافعي في «الشرح الكبير»، وصرح النووي في «الروضة» بأن الأكثرين على تقدير المدة سنة، فمن عارض بينها وبين الرافعي متأملاً قضى بمخالفتها له لأن عبارة الشرح لا تقتضي أن أكثر الأصحاب على التقدير وأنه سنة، بل أن أكثر المقدرين الذين هم من الأصحاب على ذلك، ثم يتأيد هذا القاضي بالمخالفة بأن عبارة الشافعي رضي الله عنه ليس فيها تقدير بسنة ولا بستة أشهر، وإنما قال أشهراً وأطلق الأشهر رضي الله عنه إطلاقاً، إلاَّ أن هذا إذا عاود كتب المذهب وجد الصواب ما فعل النووي فقد عزى التقدير، وأن مقداره سنة، إلى أصحابنا قاطبة، فضلاً عن أكثرهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني في تعليقه، وهذه عبارته:

قال الشافعي: ويختبر مدة أشهر ينتقل فيها من السيئة إلى الحسنة، ويعف عن المعاصي.

وقال أصحابنا: ويختبر سنة اهـ. وكذلك قال القاضي حسين في تعليقه ولفظه: مدة من المدد، قال أصحابنا: سنة اهـ. وكذلك الماوردي ولفظه: وصلاح عمله معتبر بزمان اختلف الفقهاء في حده، فاعتبره بعضهم بستة أشهر واعتبره أصحابنا بسنة كاملة، انتهى، وكذلك الشيخ أبو إسحٰق فإنه قال في «المهذب»: وقدر أصحابنا المدة بسنة وكذلك البغوي في «التهذيب» وجماعات كلهم عزوا التقدير بالسنة إلى الأصحاب فضلاً عن أكثرهم، ولم يقل بعض الأصحاب إلاَّ القاضي أبو الطيب والإمام، ومن تبعهما فإنهم قالوا: قال بعض أصحابنا: بقدر سنة، وقال بعضهم: زاد الإمام أن المحققين على عدم التقدير، ومن تأمل ما نقلناه أيقن بأن الأكثرين على التقدير بسنة، وبه صرح الرافعي في المحرر ولوح إليه تلويحاً في «الشرح الصغير»، وظهر حسن صنع النووي وإن لم يقصده عناية من الله تعالى به، انتهى كلام التاج.

وكأن الحامل له على جزمه بكونه لم يقصده عدم تصريحه بأنه من زياداته وذلك غير لازم والله أعلم.

وقال قاضي صفد العثماني: هي خلاصة مذهب الشافعي، وهي عمدة المفتين والحكام بعصرنا. أخبرنا الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن خفاجة الصفدي، وكان من العلماء العاملين، قال: رأيت رسول الله ﷺ بمنامي فقلت: يا رسول الله ما تقول في النووي؟ قال: نعم الرجل النووي، فقلت: صنّف كتاباً وسماه «الروضة» فما تقول فيها؟ قال: هي الروضة كما سماها.

وقال ابن كثير في وصف شرح مسلم: أنه جمع فيه شروحات من تقوم من

المغاربة وغيرهم وزاد فيه ونقص[١].

قلت: وقد اختصره الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف بن الياس القونوي الحنفي صاحب درر البحار وتعقب عليه فيه مواضع، وقال مرة هو أزهد مني لكني، وذكر شيئاً لا أبينه.

وكذا انتقى منه الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي، واستدرك عليه في كثير منه، فالتقط شيخنا من كلامه الاستدراك خاصة في كراسة، وكذا استدرك شيخنا على الشيخ مواضع كان غرضه إفرادها من هوامش نسخته، فما اتفق مع أنه كان شديد الأدب معه حتى سمعه مراراً يقول: لا أعلم نظيره في قبول مقال عند سائر أرباب الطوائف.

قال: وفي التعقبات لابن العماد على الجمال الأسنوي بركة ظاهرة للشيخين، وكتب على متن يتعلق بمسألة إفراد الصلاة عن السلام بعد مخالفته له في الكراهة، ولعله يعني الشيخ اطلع لذلك على دليل خاص، وأنشد:

إذا قالت حزام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حزام

ثم وقفت على كراسة من أول نكت شيخنا على شرح مسلم قال فيها: قصدت بجمعها بركة الشارح إذ كان ذلك أمراً متفقاً عليه، ولقد حكى لي العلامة الرباني الكمال إمام الكاملية وشيخها بورك في حياته، أنه رآه في النوم وعليه ثوب طرح مدقوق غسيل، قال: فقبلت يده وسلمت عليه ودعا لي كثيراً وقلت له: أنه يشق على من يعترض عليك، فقال: إنهم يعملون وجه الحسنة سيئة، انتهى المنام.

ولم يزل أهل التحقيق ممن أدركناهم وأخذنا عنهم لا ينفكون عن الاعتناء بكلامه والجواب عما لعل فيه بعض الإبهام رحمة الله عليهم، وشرع الشهاب ابن النقيب في تكملة كتاب التحقيق فكتب منه يسيراً وأفرد ابن الملقن ما في طبقات الشافعية له من أقوال في جزء، وكذا كتب على التحرير جزءاً كما تقدم، «وشرح الأربعين» له جماعة أول من علمته منهم الشهاب أبو العباس أحمد بن فرج الإشبيلي الشافعي، والنجم سليمان بن عبد القوي الطوافي الحنبلي، والتاج عمر بن علي بن سالم الفاكهاني المالكي وسماه «المنهج المتين في شرح الأربعين»، والشهاب أحمد بن موسى بن

---

(١) قلت: أصل شرح مسلم للإمام النووي للقاضي عياض اليحصبي، سماه إكمال المعلم، طبع بتحقيقنا ـ مع عدة كتب أخرى ـ بدار الكتب العلمية، بيروت. وقد استفاد من شرح النووي على مسلم كأنه اختصره وزاد عليه، مصدراً به شرحه العلامة صديق بن حسن خان القنُّوجي في السراج الوهاج شرح مختصر مسلم بن الحجاج للمنذري ـ طبع بدار الكتب العلمية بيروت، بتحقيقنا.

خفاجة الشافعي في مجلد ضخم، والحافظ الزين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي وهو نفيس، والبدر أبو عبد الله الزركشي، والسراج أبو حفص بن الملقن، وسماه «المعين على تفهيم الأربعين»، والعز يوسف بن الحسن بن محمود الحلواني، والعز محمد بن أبي بكر بن جماعة، وسماه «التبيين في شرح الأربعين»، والتقي أبو بكر بن محمد الحصني وآخرون منهم، ممن في قيد الحياة شيخ الكاملية وإمامها، وخرّج أحاديثها محمد بن أحمد بن محمد المصري السعودي عرف بابن شيخ المنبر، بل كتب عليها شرحاً جمع فيه بين الثلاثة الأولين، وأملى الحافظ الزين أبو الفضل العراقي تخريج أحاديثها، وكذا أخرج أحاديثها شيخنا[١] وأملى نحو النصف من تخريج الأذكار له[٢]، وقد شرعت في تكملته فأمليت منه إلى هذا اليوم أزيد من سبعين مجلساً، يسر الله إتمامه في خير بلا محنة، ثم بلغت إلى مائة وثلاثين ولوالد شيخنا على الأذكار بعض حواشي ـ شرح الغاية المنسوبة له ـ، الجمال الأسنوي والكمال الشيائي والتقي الحصني والشمس محمد بن أحمد بن موسى العجلوني، وولي رحمه الله من الوظائف الدينية مشيخة دار الحديث الأشرفية، قال الذهبي: مع صغر سنه ونزول روايته في حياة مشايخه بعد الإمام أبي شامة عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان سنة خمس وستين إلى أن مات، انتهى كلام الذهبي.

وفي رسالة الشيخ لابن البحار ما يشعر بكونه لم يوافق على توليها إلاّ بعد جهد، فإنه قال فيها مجيباً له عن تهديده بعزله عنها ما نصه كما سيأتي: أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها؟ إلى آخر كلامه. ونشر كما قال القطب اليونيني بها علماً جماً وأفاد الطلبة، قال: والذي أظهره وقدمه على أقرانه ومن هو أفقه منه كثرة زهده في الدنيا وعظم ديانته وورعه وليس فيمن اشتغل عليه من يلتحق به، انتهى كلام القطب.

ووهم من قال: أنه أقام في الأشرفية نحو عشرين سنة وقد استقر فيها بعد الشيخ الزين أبو محمد عبد الله بن مروان بن عبد الله الفارقي.

وقال القطب اليونيني: إن الشيخ باشر أيضاً تدريس الإقبالية والفلكية والدكنية للشافعية نيابة عن قاضي القضاة الشمس أحمد بن خلكان في ولايته الأولى اهـ.

---

(١) قلت: شرح الأربعين النووية عدد غفير من أهل العلم كالشيخ ابن حجر الهيثمي، والشيخ الكرماني، والشرنوبي، وابن العطار، والقنُّوجي، وغيرهم كثير.

(٢) شرح الأذكار جمع من العلماء بوضع حواشي وتعليقات، كابن علامة الصديقي في الفتوحات الإلٰهية شرح الأذكار النووية، وكذلك اختصرها وخرجها العلامة القسطلاني والحافظ ابن حجر.

وحدث بالصحيحين بدار الحديث الأشرفية سماعاً وبحثاً، وبقطعة من سنن أبي داود وبالرسالة للقشيري وصفوة التصوف، والحجة على تارك المحجة لنصر المقدسي، كلها سماعاً وبحثاً، وشرح معاني الآثار للطحاوي، قلت: ووجد بحاشية نسخة من الروضة أنه وجد بخطه من الشعر:

وأنت الذي أرجوه في الأمر كله ... عليك اعتمادي في جميع النوائب
وأنت الذي أدعوك سراً وجهراً ... أجرني بلفظ من جميع المصائب

وبخط تلميذه العلاء بن العطار أنه وجد بخطه أيضاً:

أموت ويبقى كل ما قد كتبته ... فيا ليت من يقرأ كتابي دعا ليا
لعل إلٰهي أن يمنَّ بلطفه ... ويرحم تقصيري وسوء فعاليا

وكذا وجد بخطه:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

ويشبه أن يكون ذلك مما تمثل به وليس من نظمه، وقيل: إنه سمع من الشيخ قرب وفاته ووجد في موضع آخر نسبتها إلى نظمه وأنه ليس له نظم غيره:

بشائر قلبي في قدومي عليهم ... ويا لسروري يوم سيري إليهم
وفي رحلتي يصفو مقامي وحبذا ... مقام به حط الرحال إليهم
ولا زاد لي إلاَّ يقيني بأنهم ... لهم كرم يغني الوفود عليهم

اهـ. وسمع منه خلق من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء، وتخرج به خلق كثير من الآفاق وسار علمه وفتاويه في البلدان، وكنت مدة صحبتي له متبصراً عليه دون غيره من أول سنة سبعين وقبلها بيسير إلى حين وفاته، وقرأت عليه الفقه تصحيحاً وعرضاً وشرحاً وضبطاً خاصاً وعاماً، وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ضبطاً واتقاناً، وأذن لي في إصلاح ما يقع في تصانيفه فأصلحت بحضرته أشياء أقرني عليها وكتبها بخطه وكان رفيقاً بي شفيقاً علي، لا يمكن أحداً من خدمته غيري على جهد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي في حركاتي وسكناتي ولطفه بي في جميع ذلك وتواضعه معي في جميع الحالات وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك.

وممن أخذ عنه الشيخ أيضاً الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب قرأ عليه قطعة من «المنهاج» واستنسخ «الروضة» وقابل ابن العطار

له بعضها مع الشيخ وأصلح بخطه مواضع فيها بإملاء الشيخ رحمهم الله، والشهاب أبو العباس أحمد بن محمد بن سليمان بن حمايل الجعفري عن ابن غانم والمحدث أبو العباس أحمد بن فرج الإشبيلي، كان له ميعاد عليه يوم الثلاثاء والسبت شرح في أحدهما «البخاري» وفي الآخر «صحيح مسلم»، والرشيد إسماعيل بن المعلم الحنفي قرأ عليه في «شرح معاني الآثار» للطحاوي، وأبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الحنبلي.

قلت: وكذا أخذ عنه الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عباس بن جعوان، والفقيه المعري أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال، والنجم إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن الخباز، والشيخ الناسك جبريل الكردي.

قال اليافعي: وعليه سمعت الأربعين، والأمين سالم بن أبي الدر، والفقيه الأديب سلطان إمام الروحانية، والقاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الدرعي، والقاضي صدر الدين سليمان الجعفري خطيب دارنا، وأبو الفرج عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي، والعلاء علي بن أيوب بن منصور المقدسي الذي نسخ «المنهاج» بخطه وحرره ضبطاً واتقاناً وهو بخطه في المحمودية، وعلي بن الموفق، والبدر محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، ويقال: إن فتواه عرضت على الشيخ فاستحسن كتابته عليها، والشمس محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن النقيب وهو آخر من كان من أعيان أصحابه، والشهاب محمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الدمشقي المقري، وتأخرت وفاته حين مات في سنة تسعين وستمائة، قرأ عليه وسمع جميع الأذكار ووصف قراءته في بعض البلاغات بالمتقنة المهذبة، ودعى له في البلاغات بدعوات جمة، منها: أدام الله نعمه عليه وأدام الله ألطافه به وأدام الله سعادته وأدام الله له الخيرات ورضي الله عنه.

وكتب له بآخر النسخة: قابلت جميع هذا الكتاب بأصلي مع صاحبه كاتبه الشيخ الإمام العالم الفاضل العامل الصدر شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الشافعي الدمشقي أدام الله له الخيرات وضاعف له الحسنات وأمده في طاعته بالمعونات، وتولاه بالحسنى وجمع له بين خيرات الآخرة والأولى، وجمعني وإياه وسائر أحبابنا في دار كرامته بفضله ورحمته. فسمعه الشيخ الإمام شهاب الدين المذكور سماعاً متقناً وقابلت معه نسخته هذه مقابلة مرضية بأصلي في مجالس آخرها يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وأجزت له كل ما يجوز لي تسميعته لابن يحيى بن شرف بن مري بن حسن النواوي عفا الله عنه.

قلت: ونقلت جميع ذلك من خطه على نسخة بالأذكار، والإمام الأوحد ناصر الدين منصور العدباوي سمع عليه الأربعين بإشارتها وحدّث بها، سمعها منه البدر محمود بن علي بن هلال العجلوني شيخ ناصر الدين محمد بن حسن القاموسي في ذلك بالسماع والشرف هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن البارديِ، والحافظ الجمال أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمٰن بن يوسف المزي، والمحدث الفاضل الأديب الكامل أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله المصري ثم الدمشقي، وهو كان قارىء دار الحديث الأشرفية وآخرون.

قال قاضي صفد العثماني: وأدركت جماعة من أصحابه كشيخنا شمس الدين بن النقيب مدرس الشامية، يعني المذكور، والقاضي ناصر الدين القدتي، ولعله الماضي، والقاضي ضياء الدين علي بن سليم وشمس الدين البيطار المعبر، انتهى كلام العثماني.

ولأبي نعيم أحمد بن التقي عبيد الأسعردي وأبي العباس أحمد بن كشتعدي المغربي، وأبي بكر بن قاسم بن أبي بكر الرحبي، والسيف أبي بكر بن محمد بن يحيى بن سنقد المعالي، والشمس أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدرة بن القماح وأبي عبد الله محمد بن النجم إسماعيل بن الخباز الماضي أبوه، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي البركات النعماني، وناصر الدين محمد بن كشتعدي أخي الماضي، والصدر أبي الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي وغيرهم إجازة منه.

ورأيت فيمن يروي عن النووي رحمه الله، السيد تاج الدين عبد الوهاب بن داود القوصي المصري، روى عنه ولده بعد شيخ لقيه السيد صفي الدين عبد الرحمٰن الأبجي، ومن خط ابن أخيه السيد علاء الدين لخصت، وكذا رأيت في شيوخ الشرف عبد الرحيم أبجر هي الشمس حسام الدين أوليا بن الفخر أبي بكر المهرنجاني نزيل مكة وأنه يروي عن النووي، وفي ترجمة عيسى بن أحمد بن عيسى العجلوني: أنه يروي عن جماعة من أصحاب النووي منهم الشيخ مسعود الحجار، والشيخ معمور الصمفا العجلونيات، ويحتاج كل ذلك لتحقيق، ورأيت أيضاً في أسانيد المجد اللغوي صاحب القاموس، أنه قرأ «الأربعين» للشيخ علي محيى الدين أبي زكريا يحيى بن أبي الحسن علي بن طاهر بدكان الدمشقي عرف بابن الحداد بمنزله على مقربة من جامع دمشق بسماعه لها بقراءة والده على مؤلفها.

لكن قد قال شيخنا في درره في يحيى المذكور، بعد أن نسبه بأنه يحيى بن علي بن أبي الحسن علي بن أبي الفرج محمد بن الحداد الصالحي الحنفي ما نصه: أنه كان يذكر أن والده أحضره إلى النووي وهو أمرد فاعتذر إليه وقال: أنا أرى أن النظر إلى الأمرد حرام فاذهب به إلى الشيخ تاج الدين، ثم عقبه شيخنا بقوله: قال شيخنا

العراقي، ولم نقف على ذلك، اهـ.

وروى الولي العراقي عن الشرف محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الحزامي السكندري أخي التاج بن عطاء الله الشهير[١]، وأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم بن أبي عبد الله المخيلي كلاهما عن النووي إجازة عامة ولست تبعاً لشيخي، أحب العمل بها، وفيما تحملناه ولله الحمد غنية عن التوسع بها.

وحكى لي العلامة الفقيه الشرف أبو زكريا المناوي رحمه الله عن الولي أبي زرعة العراقي أيضاً مذاكرة: أنه بلغه أن الجان كانت تقرأ عليه وأن بعض طلبته بينما هو عنده في خلوته إذ دخل عليه ثعبان، ففزع الطالب فأخذ الشيخ في تسكين روعه وعرفه بأنه من طلبة العلم من الجان وأنه قال له: أما نهيتك عن التزيي بهذا وأنه آخى بينهما، وعندما أراد الجني التوجه لمحله ببغداد أو العراق ـ الشك مني ـ سأل الطالب الشيخ الإذن له في التوجه معه للتفرج ببلاده، وأن الشيخ أذن له في ذلك ووصاه به وأنه تزيا في صورة بعير وأمر الإنسي أن يركبه، وقال له: إذا أحسست بالبرد الشديد فاغمزني، وأنه علا به في الجو حتى أحس بالبرد فغمزه فهبط لذلك المكان المقصود، وأنه أقام عندهم يسيراً ثم رجعا مستصحبين ما كان الشيخ أوصاهما به من فاكهة ذلك المكان، وهذه الحكاية منقطعة ولا استبعاد لصحتها.

ففي ترجمة القاضي الخلعي: أن الجان كانت تقرأ عليه، كذا ذكر عن الفخر إمام الجامع الأزهر وغيره ممن الشيخ أعظم حالاً ومقاماً ومقالاً منهم رحمة الله عليهم أجمعين.

قلت: وكذا اشتهر أن الخضر كان يجتمع به، انتهى. وذكر لي صاحبنا الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم بن الحسن الشافعي غير مرة قال: ذكر لي الشيخ الصالح الصدوق المعمر أبو القاسم بن عمير المري، وكان من الأخيار، أنه رأى فيما يرى النائم رايات كثيرة، قال: وسمعت نوبة بصوت فتعجبت من ذلك فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: الليلة قطب يحيى النووي رحمه الله، فاستيقظت من منامي ولم أكن أعرف الشيخ ولا سمعت به قبل ذلك، واتفق أني دخلت المدينة، يعني في حاجة، فذكرت ذلك لشخص فقال: هو شيخ دار الحديث الأشرفية وهو الآن جالس فيها لميعادها. فاستدللت عليه ودخلتها فوجدته جالساً فيها وحوله جماعة فوقع بصره عليّ فنهض إلى جهتي وترك الجماعة ومشى إلى طرف أبوابها ولم يتركني أكلمه وقال: اكتم ما معك

---

(١) هو سيدي بن عطاء الله السكندري القطب الرباني، إمام الطريق وسيد القوم، صاحب التصانيف في الشرع الشريف، والتحقيق المنيف، قدس الله أسراره ونفعنا بعلومه وأنواره.

ولا تحدّث به أحداً، ثم رجع إلى موضعه ولم يزد على ذلك ولم أكن رأيته قبلها ولم أجتمع به بعدها.

قلت: ونحوه قول العثماني قاضي صفد في طبقاته: وأهل الكشف يقولون إنه لم يمت حتى قطب اهـ. وقال لي شيخنا القاضي أبو المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري: لو أدرك القشيري صاحب الرسالة شيخكم وشيخه، يعني أبا عثمان المغربي، لما قدم عليهما في ذكره لمشايخها، يعني الرسالة، أحداً لما جمع فيهما من العلم والعمل والزهد والورع والنطق بالحكمة وغير ذلك.

وقال لي الشيخ العارف المحقق المكاشف أبو عبد الرحيم محمد الأخميمي قدس الله روحه: كان الشيخ سالكاً منهاج الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولا أعلم أحداً في عصره سالكاً على منهاجهم غيره.

قلت: ونقل التاج السبكي في التوشيح عن والده أنه قال: ما اجتمع بعد التابعين المجموع الذي اجتمع في النووي ولا التيسير الذي يسر له اهـ.

وقال لي بعض الصالحين الكبار: إنه حين ولد كتب من الصادقين.

وذكر شيخنا العارف القدوة المسلك ولي الله أبو الحسن المقيم بجامع بنت لهيا خارج دمشق قال: كنت مريضاً بمرض يسمى النقرس في رجلي، فعادني الشيخ، فلما جلس عندي شرع يتكلم في الصبر قال: فكان كلما تكلم يذهب الألم قليلاً قليلاً حتى زال الألم جميعه، فعرفت أن زواله ببركته.

وقال لي جماعة بنوى: إنهم سألوه يوماً أن لا ينساهم في عرصات القيامة، فقال لهم: إن كان لي ثم جاه والله لأدخلت الجنة وأحد ممن أعرفه ورائي.

وقال لي المحدث أبو العباس بن فرح: كان الشيخ قد صارت إليه ثلاثة مراتب كل مرتبة منها لو كانت لشخص شدت إليه الرحال، المرتبة الأولى: العلم، والثانية: الزهد، والثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قلت: وقال الذهبي في سير النبلاء: كان يؤثر عنه كرامات وأحوال.

وقال التقي محمد بن الحسن اللخمي: إنه ظهرت له الكرامات الكثيرة من سماع الهاتف[١] ومن انفتاح الباب المقفل بالأقفال ورده كما كان، وانشقاق الحائط في الليل وخروج شخص له منه حسن الصورة وكلامه معه في مصالح الدارين واجتماعه بالأولياء

(١) يعني: الهاتف الملائكي، الرباني.

والأصفياء ومكاشفته هو للواحد بأحوال لا يعلمها إلاّ الله ثم صاحبها، وإعلامه بموته وهو بدمشق، ومن قوة نفسه ملازمته لحية عظيمة في بيته بالروحانية ويراها كل قليل تخرج إليه ويضع لها لباباً تأكله، حتى إن بعضهم رآه في غفلة وهو يطعمها اللباب فقال له: يا سيدي ما هذه؟ وخاف، فقال: هذه خلق من خلق الله لا يضر ولا ينفع أسألك بالله أن تكتم ما رأيت ولا تحدث به أحداً. وأحواله كثيرة لا يسعها هذا المحل.

فرحمه الله لقد كان من الدين بمكان الرأس من الجسد، ظهر له العلم فشمر إليه ونظر إلى الخيرات فأفرغت عليه، إذا تكلم افتتح كلامه بالحمد لله والثناء عليه، وإذا ذكر النبي ﷺ رفع صوته بالصلاة عليه اهـ. وكان إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وسودهم وذكر مناقبهم وكراماتهم.

قلت: زاد اللخمي واكتسب من أحوالهم اهـ.

وكنت أنا وإياه يوماً في الحلقة بين يدي أحد مشايخه أبي حفص الربعي، فقام وملأ إبريقاً وحمله بين يدي أبي حفص إلى الطهارة.

قلت: ومن مكاشفاته ماحكى الزين عمر بن الوردي في ترجمة الشمس بن النقيب من تاريخه أنه قال: دخلت وأنا صبي على النووي رحمه الله، يعني في أيام اشتغاله عليه، فقال لي: أهلاً بقاضي القضاة، قال: فنظرت فلم أجد عنده أحداً غيري فقال لي: اجلس يا مدرس الشامية، وهذا من جملة كشف الشيخ رحمه الله فإنه وليهما معاً.

وكانت حكاية ابن النقيب لذلك وهو بحلب قبل ولايته الشامية، وكان يظن أنه يلي قضاء الشام فما ولي إلاّ حمص ثم طرابلس ثم حلب ثم رجع إلى دمشق فولي الشامية.

ومن كراماته ما حكاه ابن الوردي أيضاً في ترجمة شيخه الشرف البارزي مما حكاه له في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، أنه رأى النووي في المنام قال: فقلت له: ما تختار في صوم الدهر؟ فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال: فلما استيقظت وجدت الأمر كذلك، يعني بعد السعي فإنني لم أر الأقوال مجموعة في كتاب واحد. وعده ابن الوردي من كرامات شيخه أيضاً.

ووجدت هذا المنام بخط شيخي في بعض أجزاء تذكرته وعبارته، قال الشرف البارزي: رأيت النووي في النوم فسألته عن صوم الدهر فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال: فأقمت حولاً حتى اجتمعت لي، ولم أجدها مجموعة في كتاب وهي هذه: صوم الدهر في حق من لم ينذر ولم يتضرر به، فيه أربعة أقوال: الاستحباب

وهو اختيار أكثر الشافعية، والكراهة وهو اختيار البغوي، والإباحة وهو نص الشافعي، والتحريم وهو قول جماعة من السلف. وفي حق من نذر ولم يتضرر به خمسة أقوال: الوجوب وهو اختيار أكثر الشافعية، والأربعة المتقدمة للقائلين. وفي حق من يتضرر به بأن تفوته السنن أو الاجتماع بالأهل ثلاثة أقوال: التحريم والكراهة والإباحة، انتهى ما قرأته بخط شيخنا.

وكذا من كراماته ما كان يراه من المنامات التي تأتي كفلق الصبح: إنني كنت يوماً بين يديه لتصحيح درس عليه في مختصر علوم الحديث الأصغر له، فلما فرغت منه قال لي: رأيت الليلة في المنام كأني كنت سائحاً في بحر وكأني خرجت منه إلى شاطئه وإذا أنا بشخص قد غرق فيه وقد تعلق بخشبة على وجهه لحظة ثم غرق فقلت له: يا سيدي علمت الشخص من هو؟ قال: نعم، قلت: من هو؟ قال: ابن النجار، قلت: فما أولته، قال: يظهر قليلاً ثم يخفى خفاء لا ظهور بعده مع نفاق بقلبه. قلت: فكان كذلك، وابن النجار هذا هو الذي راسله بما سيأتي اهـ.

وأما تقدمه في العلم وكثرة عبادته فسمعت شيخنا أبا عبد الله محمد بن الظهير الإربلي الحنفي شيخ الأدب في وقته وكان كتب كتاب العمدة في تصحيح التنبيه له(١) وسألني في مقابلته معه بنسختي ليرويه عني، يقول بعد فراغنا منه ما وصل التقي ابن الصلاح لما وصل إليه الشيخ من العلم والفقه والحديث واللغة وعذوبة اللفظ وحلاوته.

قلت: وفي كلام الأدفوي في البدر السافر، أن الشيخ نوزع مرة في نقل عن الوسيط فقال: ينازعوني في الوسيط وقد طالعته أربعمائة مرة وكان من سعة علمه كما في سير النبلاء، عديم النظير لا يرى الجدال ولا تعجبه المبالغة في البحث ويتأذى ممن يجادل ويعرض عنه.

وقال في موضع آخر: كان لا يتعانى لفظ الفقهاء وغياظهم في البحث بل يتكلم بتؤدة ووقار ولذلك كان قلمه أبسط من عبارته. قال في «البدر السافر»: وكان كثير العبادة، حكى لي البدر بن جماعة أنه سأله عن نومه، فقال: إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه ـ قال ـ أعني البدر، وكنت إذا أتيته أزوره يضع بعض الكتب على بعض ليوسع لي مكاناً أجلس فيه اهـ.

وذكر لي صاحبنا الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي في

---

(١) يعني للنووي رضي الله عنه، وهو مطبوع.

حياة الشيخ قال: كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٢٤] مراراً بخوف وخشوع حتى حصل عندي من ذلك أمر عظيم.

قلت: وصرح اليافعي والتاج السبكي رحمهما الله أنه أشعري.

وقال الذهبي في تاريخه: إن مذهبه في الصفات السمعية السكوت وإمرارها كما جاءت وربما تأول قليلاً في شرح مسلم كذا، قال: والتأويل كثير في كلامه اهـ.

وأما ورعه وخشونة عيشه فأنه كان لا يأكل من فاكهة دمشق، وسألته عن ذلك فقال: إنها كثيرة الأوقاف والأسلاك لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في ذلك إلاّ على وجه الغبطة والمصلحة والمعاملة فيها على وجه المساقاة، وفيها اختلاف بين العلماء ومن جوزها قال بشرط المصلحة والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلاّ على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك فكيف تطيب نفسي.

قلت: وتبعه القطب التونيني على حكاية ذلك قال: وأيضاً فغالب من يطعم أشجاره إنما يأخذ الأقلام غصباً أو سرقة، لأن أحداً ما يهون عليه يبيع أقلام أشجاره وما جرت بذلك عادة، فتؤخذ تلك الأقلام سرقة وتطعم في أشجار الناس فتطلع الثمرة في نفس القلم المغصوب فتكون ملكاً لصاحب الأقلام لا لصاحب الشجرة فيبقى بيعه وشراؤه حراماً، انتهى كلام القطب.

وصفته أنهم يشقون فرعاً من فروع الشجرة ويجعلون في جوفه قطعة من غيرها ثم يشدونه بحبل ونحوه ما يفعل في النخيل.

وفي كلام الذهبي أنه ترك جميع الجهات الدنيوية فلم يكن يتناول من جهة من الجهات درهماً فرداً وأنه ما أخذ للأشرفية فيما بلغني جامكية بل اشترى بها كتباً ووقفها.

وقال ابن دقماق: إنه كان يجمع جامكيته عند الناظر، وكلما صار له حق سنة اشترى له به ملكاً ويوقفه على دار الحديث أو كتباً فيوقفها على خزائنها.

وقال قاضي صفد العثماني: إنه لم يأخذ معلوماً قط، قال: وباشر مشيخة دار الحديث لما تعين عليه فلم يتناول شيئاً من معلومها. وقال غيرهم: إنه لم يتناول منها شيئاً إلاّ سنة أو سنتين اهـ. وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلاّ إن تحقق دينه ومعرفته ممن ليست له به علقة من إقراء أو انتفاع به قصداً للخروج من حديث «إهداء القوس»، وربما أنه كان يرى نشر العلم متعيناً عليه مع قناعة نفسه وصبرها، والأمور المتعينة لا يجوز أخذ الجزاء عليها كالقرض الجار إلى منفعة فإنه حرام باتفاق العلماء.

قلت: حديث القوس المشار إليه روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم منهم أبي بن كعب فأخرجه البيهقي في سننه من طريق عطية بن قيس الكلابي: «قال: علَّم أبي بن كعب رضي الله عنه رجلاً القرآن فأتى اليمن فأهدى له قوساً فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إن أخذتها فخذ بها قوساً من النار»(١) وقال: إنه منقطع.

ومنهم عبادة بن الصامت، واختلف في سنده فأخرجه أبو داود من طريقة البيهقي في سننيهما من طريق عبادة بن نسي قال مرة عن الأسود بن ثعلبة ومرة عن جنادة بن أبي أمية كلاهما عن عبادة قال: علمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن فأهدى إليَّ رجل منهم قوساً فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله أهدى رجل إليَّ قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، قال: «إن كنت تحب أن تطوق بطوق من نار فاقبلها»(٢).

لفظ الأسود ولفظ جنادة: «فقلت: ما ترى فيها يا رسول الله؟ فقال: جمرة بين كتفيك تقلدنها أو تعلقنها».

ومنهم أبو الدرداء، فأخرجه البيهقي من طريق إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: «من أخذ قوساً على تعليم القرآن قلده الله قوساً من نار». ونقل عن بعض الأئمة أنه ليس له أصل(٣) اهـ.

وكنت جالساً بين يديه قبل وفاته بنحو شهرين فدخل عليه فقير وقال: الشيخ فلان من بلاد صرخد يسلم عليك وقد أرسل لك معي هذا الإبريق، قال: فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه فتعجبت من قبوله له واستشعر بذلك فقال: أرسل إلى بعض الفقراء نعلاً وهذا إبريق وكلاهما آلة السفر.

قلت: وفيما أدرجه الذهبي في كلام ابن العطار مما لم أقف عليه في النسخة التي وقفت عليها قال: وعزم عليه الشيخ برهان الدين الإسكندراني أن يفطر عنده في رمضان فقال: أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة، قال ابن العطار: فأفطرنا ثلاثين أو أكثر على لونين من الطعام، وكان الشيخ في بعض الأوقات يجمع إدامين اهـ.

---

(١) رواه الضياء في الأحاديث المختارة (٤/ ٢٢)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٢٥)، وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ٧).

(٢) رواه أبو داود (٣/ ٢٦٤)، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠)، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٥)، والحاكم (٢/ ٤٨)، والضياء (٨/ ٢٥٢)، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠).

(٣) انظر: التحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢١٨)، وفيض القدير (٢/ ٤١٨).

ورأيت رجلاً من أصحابه قشر خيارة ليطعمه إياها فامتنع من أكلها وقال: أخشى أن ترطب جسمي وتجلب النوم.

قلت: ونحوه عدم تعاطيه البلح على عادة الدمشقيين، وكذا الماء المبرد كما حكاه غير واحد، بل قال الشمس بن الفخر: إنه كان قد ترك جميع ملاذ الدنيا من المأكل إلاَّ ما يأتيه به أبوه من كعك يابس وتين حوراني، والملبس إلاَّ الثياب الرثة المرقعة ولم يدخل الحمام وترك الفواكه جميعها.

وقال اللخمي: كان أبوه وأمه يرسلان إليه بعض القوت فيأكله، وترسل أمه له القميص ونحوه ليلبسه ولا يقبل من أحد شيئاً غير أقاربه وبعض أهل الصلاح، ولم يتزوج قط فيما علمت لاشتغاله بالعلم والعمل وكذا جزم بكونه لم يتزوج غير واحد، منهم قاضي صفد.

وقال ابن دقماق: إنه كان يأكل من خبز يبعثه له أبوه من نوى يخبزونه له ويشترون له ما يكفيه جمعة فيأكله ولا يأكل معه سوى لون واحد إما دبس وإما خل وإما زيت، وأما اللحم ففي كل شهر مرة ولا يكاد يجمع بين لونين من إدام أبداً.

وقال الكمال الأدفوي في البدر السافر: إنه كان لا يجمع بين إدامين ولا يأكل اللحم إلاَّ عندما يتوجه لنوى اهـ.

وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة واحدة بعد عشاء الآخرة ولا يشرب إلاَّ شربة واحدة عند السحر وإذا شرب فلا يشرب الماء المبرد.

قلت: وسمعت أهل دمشق يذكرون أنه كان يشرب من عين الوراقة اهـ. وقلع ثوبه ففلاه بعض الطلبة وكان فيه قمل فنهاه وقال: دعه.

وذكر لي العلامة رشيد الدين إسماعيل بن المعلم الحنفي قال: عذلته في عدم دخول الحمام وتضييق عيشه في أكله ولباسه وجميع أحواله، وقلت له: أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء أفضل مما تقصده، قال: فقال لي: إن فلاناً صام وعبد الله تعالى حتى اخضر عظمه، قال: فعرفت أنه ليس له غرض في المقام في دارنا ولا الالتفات لما نحن فيه.

قلت: وقال الذهبي في «سير النبلاء»: كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم مع التقوى والقناعة والورع الثخين والمراقبة لله في السر والعلانية، وترك رعونات النفس من ثياب حسنة ومأكل طيب وتجمل في هيئة، بل طعامه حلف الخبز بأيسر إدام ولباسه ثوب خام وسختانية لطيفة، ووصفه بأنه كان أسمر، كث اللحية، ربعة، مهيباً، قليل

الضحك، عديم اللعب، بل هو جد صرف يقول الحق وإن كان مراً لا يخاف في الله لومة لائم.

وقال في تاريخ الإسلام[(١)]: وكان في ملبسه مثل آحاد الفقهاء من الحوارنة لا يؤبه له، عليه سنجنابية صغيرة. ووصفه بأن لحيته كانت سوداء فيها شعرات بيض وعليه هيئة وسكينة.

وفي البدر السافر حكاية عن قاضي القضاة الجمال سليمان الزرعي أنه كان يتردد إليه وهو شاب قال: فجئت إليه في يوم العيد فوجدته يأكل خزيرة مدخنة فقال سليمان: كل، فلم تطب لي، فقام أخوه وتوجه إلى السوق وأحضر شواء[(٢)] وحلوى، وقال له: كل، فلم يأكل فقال له: يا أخي أهذا حرام؟ فقال: لا، ولكنه طعام الجبابرة اهـ.

وكان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار لا تأخذه في الله لومة لائم، بل كان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل ويتوصل إلى إبلاغها. فمما كتبه وأرسلني بالسعي فيه، ورقة إلى الظاهر تتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس عنهم وكتب معه في ذلك غير واحد من الشيوخ وغيرهم ووضع ورقة الظاهر في ورقة لسليك الخازندار بدر الدين، نصها:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله يحيى النووي، سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء بدر الدين أدام الله له الخيرات وتولاه بالحسنات وبلغه من خيرات الآخرة والأولى كل آماله، وبارك له في جميع أحواله، آمين. وننهي إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش وضعف حال بسبب قلّة الأمطار وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات وهلاك المواشي وغير ذلك، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الراعي والرعية ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان المحبون له كتاباً بتذكرة النظر في أحوال رعيته والرفق بهم، وليس فيه ضرر بل هو نصيحة محضة وشفقة تامة وذكرى لأولي الألباب، والمسؤول من الأمير أيده الله تعالى تقديمه إلى السلطان أدام الله له الخيرات ويتكلم عليه من الإشارة بالرفق بالرعية بما يجده مدخراً له عند الله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠]. وهذا الكتاب الذي أرسلته

(١) للذهبي ـ مطبوع ثلاث طبعات.
(٢) يعني طيراً أو لحماً مشوياً على العموم.

العلماء إلى الأمير أمانة ونصيحة للسلطان أعز الله أنصاره والمسلمين كلهم في الدنيا والآخرة، فيجب عليكم إيصاله للسلطان أعز الله أنصاره، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة ولا عذر لكم في التأخر عنها ولا حجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى، وتُسئلون عنها ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشُّعراء: الآية ٨٨] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عَبَسَ: الآيات ٣٤-٣٧]. وأنتم بحمد الله تحبون الخير وتحرصون عليه وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات وأفضل الطاعات، وقد أهلتم له وساقه الله إليكم وهو فضل من الله ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٥] والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فماذا فعلتموه وجدتموه عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما وصلت الورقتان إليه أوقف عليهما السلطان، فلما وقف عليهما رد جوابهما رداً عنيفاً مؤلماً فتنكدت خواطر الجماعة الكاتبون وغيرهم، فكتب رحمه الله جواباً لجوابه صورته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، من عبد الله يحيى النواوي ينهى أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد وفهمنا منه أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٧] فوجب علينا حينئذ بيانه وحرّم علينا السكوت، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التَوبَة: الآية ٩١] وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأحياء وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم من الزراعة والصنائع وغيرها الذي يحتاج الناس كلهم إليها، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك، وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله

أنصاره متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله معمور زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٦] وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى واتباع آثار النبي ﷺ وملازمة أحكام الشرع، وجميع ما كتبناه أولاً وثانياً هو النصيحة التي نعتقدها وندين لله بها ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية وليس فيه ما يلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا بأنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله ﷺ في الرفق بالرعية والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبي ﷺ وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبنا، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا، وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه، وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: الآية ٣٩]، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٤٤]، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وأن لا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سبباً في دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على ممر الأيام ويخلد في سننه الحسنة ويجد نفعه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠]. وأما ما ذكر في تمهيد السلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء فهو بحمد الله من الأمور السائغة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة، وسارت في أقطار الأرض ولله الحمد وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومما كتبه لما احتيط على أملاك دمشق حرسها الله تعالى بعد إنكاره مواجهة الظاهر وعدم إفادته رسوله.

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ

أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٧] وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المَائدة: الآية ٢] وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ونصيحة عامة المسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة لله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم»[١] ومن نصيحة السلطان وفّقه الله لطاعته وأولاه بكرامته أن ينهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٨٨] وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»[٢]، وقال ﷺ: «من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٣]، وقال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فأشقق عليه»[٤]، وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٥]، وقال ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمٰن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٦]، وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان أعز الله أنصاره، فقد أقامه لنصرة الدين، والذب عن المسلمين، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها في خير وعافية آمين، وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]. وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها وطلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه ولا يكلف بإثباته. وقد اشتهر من

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠)، ومسلم (١/ ٧٤).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٦١)، والديلمي (١/ ٧٦).
(٣) رواه البخاري (٢/ ٨٦٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦).
(٤) رواه أحمد في المسند (٦/ ٦٢، ٢٥٧، ٢٥٨)، وأبو عوانة في مسنده (٤/ ٣٨١)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٤٣).
(٥) رواه البخاري (١/ ٣٠٤، ٤٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩).
(٦) أورده النووي في شرح مسلم (١٢/ ٢١١)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٣).

سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوابه به، فهو أولى من عمل به، والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون وبهم تنصر وتغاث وترزق، وهم سكان الشام المبارك جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم، وسكان ديارهم فلهم حرمات من جهات، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم وأطلقهم في الحال ولم يؤخرهم، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها فيالله أغث المسلمين يغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء وقد نهبت كتبهم، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ويظهره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٧] وتتوفر له من رعيته الدعوات وتظهر في مملكته البركات، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فنسأل الله الكريم أن يوفّق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة ويحميه من السنن السيئة. فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه.

قلت: وكان السبب في هذه الحوطة كما صرح به صاحب البدر السافر: أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ونزوحهم عن البلاد، ولّى وكالة بيت المال شخصاً من الحنفية فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها فتملكوها على مقتضى مذهب أبي حنيفة رحمه الله، فوضع السلطان يده عليها فقام جماعة من أهل العلم في ذلك وكان الشيخ فيهم، قلت: بل هو أعظمهم، قال: فكلم السلطان في ذلك كلاماً فيه غلظة فظن السلطان أن له مناصب يعزله عنها، فقيل له: ما له، انتهى كلام البدر.

وقال القطب اليونيني: إنه واقف الظاهر غير مرة بدار العدل بسبب الحوطة على بساتين دمشق وغير ذلك. وحكي عن الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه أو ما هذا معناه، ولقد شاهدته مرة طلع إلى زاوية الشيخ خضر بالجبل المشرف على المزة وحدثه في أمر وبالغ معه وأغلظ له، فسمع الشيخ خضر كلاماً مؤلماً فأمر بعض من عنده بإخراجه ودفعه فما تأثر لذلك في ذات الله عز وجل ولا رجع عن قصده لنفع يجلبه لبعض المسلمين، فقد كانت مقاصده جميلة وأفعاله لله تعالى.

وقال العماد ابن كثير: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة لما أرادوا وضع الأملاك على بساتينها فرد عليهم ذلك ووقى الله شرها بعد أن غضب السلطان وأراد البطش به ثم بعد ذلك أحبه وعظمه حتى كان يقول: أنا أفزع منه. انتهى كلام ابن كثير.

والظاهر المشار إليه هو ركن الدين أبو الفتوح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي صاحب مصر والشام الذي أفرد سيرته ابن عبد الظاهر وابن شداد، ومات بدمشق قبل الشيخ بيسير في العشر الأخير من المحرم من السنة التي مات الشيخ فيها، وأما بيلبك فهو الأمير بدر الدين الخازندار الظاهري نائب المملكة وأتابك الجيوش المنصورة وكان موصوفاً بكثرة المعروف ومحبة الصلحاء والعلماء وحسن السيرة مع الحظ الحسن وفهم وذكاء واعتناء بمطالعة التواريخ وسماع الحديث، ومات أيضاً قبيل الشيخ بيسير وبعيد الظاهر، وذلك في ربيع الآخر من السنة أيضاً اهـ.

ومما كتبه رسالة تتعلق بالمكوس والحوادث الباطلة، وأبطل الله ذلك على يد من شاء من عباده في دولة السعيد بن الظاهر، قلت: والسعيد هذا هو ناصر الدين محمد بركة خان بن الظاهر ركن الدين المذكور، واستقر في المملكة بعد أبيه وخلع منها بعد سنتين وشهرين وثمانية أيام، انتهى.

ومما كتبه بسبب الفقهاء لما رسم بأن الفقيه لا يكون منزلاً في أكثر من مدرسة واحدة، وصورته: بسم الله الرحمٰن الرحيم، خدمة الشرع ينهون أن الله تعالى أمرنا بالتعاون على البر والتقوى ونصيحة ولاة الأمور وعامة المسلمين وأخذ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين ومناصحة المسلمين وحث على تعظيم حرماته وإعظام شعائر الدين وإكرام العلماء واتباعهم، وقد بلغ الفقهاء بأنه رسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم ويقطعوا عن بعض مدارسهم، فتنكدت بذلك أحوالهم وتضرروا بهذا التضييق عليهم وهم محتاجون ولهم عيال، ومنهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم وإن كان منهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه، ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم وثناء الله تعالى عليهم، وبيان مرتبتهم على غيرهم وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأن الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان، واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة والإحسان إليهم ومعاضدتهم، ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه الرفق بهم، فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[١].

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٥).

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجالاً يأتونكم يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»(١) والمسؤول أنه لا يغير على هذه الطائفة شيء وتستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلاَّ بضعفائكم»(٢) وقد أحيطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم فقال: أقمت لك بها جنداً لا ترد سهامهم فاستصوب فعله وساعده عليه والله الكريم يوفق الجناب دائماً لمرضاته والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

وله رحمه الله رسائل كليات تتعلق بالمسلمين وجزئيات، وفي إحياء سنن نيرات، وفي إماتة بدع مظلمات، وكلام طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات مواجهاً به أهل الرتب العاليات.

قلت: منها رسالة إلى نائب السلطنة بدمشق يطلب جمع الناس للاستسقاء، كتبها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى سنة ثمان وستين وستمائة وهو الخامس من كانون الأصم، ونصها: خدمة الشرع العلماء بدمشق المحروسة ينهون أن الله سبحانه وتعالى أخذ عليهم العهد بتبليغ الشرع إلى المكلفين ونصيحة الله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ وولاة الأمر وعامة المسلمين، ونصيحة الله ورسوله امتثال أوامرهما، ومن نصيحة ولاة الأمر تبليغهم شرائع الأحكام وإرشادهم إلى شعائر الإسلام والإشارة عليهم بفعلها وإشاعتها ونشرها ونصيحة التوكل، أو أنه اعتراض على الله تعالى فهذا المخذل مخطىء جاهل بل إن اعتقد هذا كان كافراً لأن ما فعله رسول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كل مكلف الانقياد له والمسارعة إلى قبوله وانشراح الصدر له، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: الآية ٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: الآية ٥١] وكل ما خالف سنّة رسول الله ﷺ فهو البدعة والضلالة والغباوة والجهالة والسفاهة والرذيلة، بل هذه طريقة الكفار في مدافعة دين الإسلام ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويجب على ولي الأمر وفقه

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٠)، وابن ماجه (١/ ٩١).

(٢) تقدم تخريجه.

الله لطاعته إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضال الغاشم المتجاهل، وغيره ممن يقول نحو هذا القول في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ أن يؤدب تأديباً بليغاً ينزجر به هو وأمثاله ويشهر أمره لينكف أهل الجهالة والضلالة عن مثل فعله وليعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر الله تعالى والاقتداء برسول الله ﷺ وهو مصلحة فاخرة، وسعادة معجلة، ومنّة من الله تعالى يشكر على التوفيق لها. وأما نزول المطر فهو إلى الله تعالى وليس المراد بالاستسقاء تيقن نزول المطر، فإن علم الغيث وإنزال الغيث وغيره من الكائنات إلى رب العالمين، وقد أمرنا الله تعالى بدعائه ووعدنا بالإجابة وهو لا يخلف الميعاد، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: الآية ٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: الآية ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦] وليعلم أنه ليس للاستسقاء شروط تعتبر في صحته سوى اجتماع الناس والصلاة، وهذا متيسر لا مانع منه. لكن قال العلماء: يستحب لولي الأمر أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء والصدقة وصيام ثلاثة أيام ويخرجون في اليوم الرابع صياماً، وهذا أدب مستحب ليس بواجب ولا شرط، لو ترك صح الاستسقاء ومع هذا فهو هيِّن بحمد الله تعالى لا كلفة فيه، فإن معناه أن ولي الأمر يأمر بعض نوابه أن ينادي في الناس بذلك وليس معناه أن يحكم على قلوبهم بفعله، فإن ذلك لا يقدر عليه إلاَّ ربّ العالمين، بل هو يأمرهم به فمن وفّق له فهو نعمة من الله تعالى عليه ومن حرمه فلا يضر إلاَّ نفسه، ويرجى للمسلمين الرحمة والخير بامتثال الموفقين وما يخلو هذا الأمر من مصالح كثيرة من صلاة وصيام وصدقة وذكر وتوبة وإقلاع عن معاص وإقبال على الطاعات، لا سيما وقد منَّ الله تعالى وله الحمد والنعمة على المسلمين بما وفّق له السلطان زاده الله فضلاً وخيراً وتمكيناً وعلوّاً ونصراً، وأدامه ظاهراً على أعداء الدين، وسائر المخالفين، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكرات، مبطلاً للحوادث، مظهراً للمحاسن والخيرات، بما فعله من إزالة هذا المنكر العظيم الفاحش الجسيم الذي لم يسبق إلى إزالته ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: الآية ٤٠]. فهذه نصيحة الخدمة أنهوها إلى الأمير وهم راجون من فضل الله تعالى مسارعته إلى هذه المصلحة وقد ضاق الوقت عن تأخيرها، وهذه المصلحة لا تحصل بفعل آحاد الناس، بل باجتماع الناس كلهم ومنهم العلماء والصالحون والصغار والضعفاء والمساكين والمضطرون، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «وهل تنصرون وترزقون إلاَّ

بضعفائكم»[١] والله يوفق الأمير لكل مكرمة ويديمه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حاثاً على الاهتمام بشعائر الدين، ومصالح المسلمين، آمين، والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولما وصلت الرسالة لولي الأمر وفّقه الله تعالى، أمر محتسب البلد فنادى ساعته في الناس بصيام ثلاثة أيام أولها يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الأولى المذكور، وبالصدقة والمعروف ومصالحة الأعداء وغير ذلك مما هو من آداب الاستسقاء، ثم خرج ولي الأمر والناس يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقوا، ثم سقوا بعد ذلك بسبعة أيام سقياً عامة وترادفت أمطار كثيرة بعد أن حصل لكثير من الناس قنوط، فللّه الحمد على نعمه، والتوفيق لإظهار شعائر دينه ومتابعة رسوله ﷺ والاعتناء بسنته، ومسارعة المسلمين إليها.

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق، فامتثلوا أمره في ذلك فسقوا كلهم في بلدانهم في الوقت المذكور، ثم وقعت في البلدان ثلوج كثيرة لم ير في تلك السنين مثلها وأبطل تضمين الخانات[٢] والخمور وأريقت على كل من وجدت عنده في دمشق وسائر بلاد الشام ورفعت المنكرات ولله الحمد رفعاً تاماً بعد أن كانت شائعة أفحش الشياع وذلك في ربيع الآخر من السنة، ثم جعل الله الكريم في الغلات أنواع البركات وأخصبت الغلات في جميع بلاد الشام إلى حد لم يعهد مثله من نحو ثلاثين سنة، ثم أعقب ذلك رخصاً لكثرة الغلات لم يعهد مثله من نحو خمس عشرة سنة حتى بيعت غراره بثلاثين درهماً وبأربعين وما بينهما والشعير بأربعة عشر درهماً، وقلّت رغبة الناس في الغلات لكثرتها ولله الحمد والمنّة.

هذا كله لفظ الشيخ وأردفه بفصل في صفة الاستسقاء وآدابه وقرأ جميع ذلك عليه تلميذه ابن العطار في يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وستمائة بالرواحية بدمشق. ثم حدث به البرهان أبو إسحاق إبراهيم بن الضياء أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد السكندري عن العلاء بن العطار إجازة إن لم يكن سماعاً،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هي بيوت غير مسكونة، وأماكن تقديم الخمور واللهو المحرّم، ومنه حانوت الخمار، وجمعها حوانيت.

وأنبأني به العز أبو محمد الحنفي عن أبي إسحٰق المذكور اهـ.

وكان بدمشق شخص يقال له ابن النجار، سعى في إحداث أمور على المسلمين باطلة، فقام الشيخ ومعه جماعة من العلماء حتى أزالوها فغضب ابن النجار وراسل الشيخ يتهدده ويقول له: أنت الذي حرَّكت العلماء بهذا، فكتب له الشيخ ما نصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، من يحيى النواوي، اعلم أيها المقصر في التأهب لمعاده، التارك مصلحة نفسه في تهيئة جهاده له وزاده، إني كنت لا أعلم كراهتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين حملاً مني لك على ما هو شأن المؤمنين من إحسان الظن بجميع الموحدين، وربما كنت أسمع في بعض الأحيان من يذكرك بغش المسلمين، فأنكر عليه بلساني وقلبي لأنها غيبة لا أعلم صحتها، ولم أزل على هذا الحال إلى هذه الأيام، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان وفّقه الله الكريم للخيرات، إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء، وهذا من الافتراء الصريح والكذب القبيح، فوجب عليّ وعلى جميع من علم هذا من العلماء أن نبين بطلان هذه المقالة، ودحض هذه الشناعة، وأنها خلاف إجماع المسلمين وأنه لا يقول بها أحد من أئمة الدين، وأن ينهوا ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجب على الناس نصيحته لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم» وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان وفّقه الله تعالى لطاعته وتولاه بكرامته، وقد شاع بين الخواص والعوام أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع ويحافظ على العمل به، وأنه بنى المدرسة لطوائف العلماء ورتب القضاة من المذاهب الأربعة وأمر بالجلوس في دار العدل لإقامة الشرع وغير ذلك مما هو معروف من اعتناء السلطان أعز الله أنصاره بالشرع، وأنه إذا طلب طالب منه العمل بالشرع أمر بذلك ولم يخالفه، فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين ما افتراه ودلس على السلطان وأظهر أن انتزاعها جائز عند بعض العلماء وغش السلطان في ذلك وبلغ ذلك علماء البلد وجب عليهم نصيحة السلطان وتبيين الأمر له على وجهه، وإن هذا خلاف إجماع المسلمين فإنه يجب عليهم نصيحة الدين والسلطان وعامة المسلمين، فوفّقهم الله تعالى للاتفاق على كتب كتاب يتضمن ما ذكرته على جهة النصيحة للدين والسلطان والمسلمين ولم يذكروا فيه أحداً بعينه، بل قالوا: من زعم جواز انتزاعها فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك لما يجب عليهم من النصيحة المذكورة، واتفقوا على تبليغها ولي الأمر أدام الله نعمه عليه لينصحوه ويتبينوا حكم الشرع، ثم بلغني جماعات متكاثرات في أوقات مختلفات، حصل لي العلم بقولهم

إنك كرهت سعيهم في ذلك وشرعت في ذم فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله إليّ ويا حبذا ذلك من صنيع، وبلغني عنك هؤلاء الجماعات أنك قلت: قولوا ليحيى هذا الذي سعى في هذا فينكف عنه وإلاً أخذت منه دار الحديث. وبلغني عنك هؤلاء الجماعات أنك حلفت مرات بالطلاق الثلاث أنك ما تكلمت في انتزاع هذه البساتين وأنك تشتهي إطلاقها، فيا ظالم نفسه أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، فكيف يصح الجمع بين شهوتك وإطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراهتك السعي في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين، ويا ظالم نفسه هل تعرض لك أحد بمكروه أو تكلم فيك بغيبتك، وإنما قال العلماء من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلس عليه وغشه ولم ينصحه، فإن السلطان ما يفعل هذا إلاً لاعتقاده أنه حلال عند بعض العلماء، فبينوا أنه حرام عند جميعهم وأنت فقد قلت أنك لم تتكلم فيها، وحلفت على هذا بالطلاق الثلاث فأي ضرر عليك في إبطال قول كاذب على الشرع غاش مدلس على السلطان؟ قد قلت: إنه غيرك وكيف تكره السعي على شيء قد أجمع الناس على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه، وأنا بحمد الله من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحه فهو إلى الله تعالى مقلِّب القلوب والأبصار، ثم إني أتعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً ويا حبذا من اتخاذ، فإني بحمد الله تعالى أحب في الله تعالى وأبغض فيه فأحب من أطاعه وأبغض من خالفه، وإذا أخبرت عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين ونصيحة السلطان فقد دخلت في جملة المخالفين وصرت ممن نبغضه لله رب العالمين، فإن ذلك من الإيمان، كما جاءت به الآثار الصحيحة المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار، أرض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه منه. ويا ظالم نفسه أنا ما خاصمتك أو كالمتك أو ذكرتك أو بيني وبينك مخاصمة أو منازعة أو معاملة في شيء، فما بالك تكره فعل خير يسرّني الله الكريم له ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البُروج: الآية ٨] بل أنت لسوء نظرك لنفسك تنادي على نفسك وتشهد الشهود بكراهة هذه النصيحة التي هي مصرحة بأنك أنت الذي تكلمت في هذه البساتين وأن الطلاق واقع عليك، وما أبعد أن تكون شبيهاً بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٣٠] ويا عدو نفسه أتراني أكره معاداة من سلك طريقتك هذه، بل والله أحبها وأوثرها وأفعلها بحمد الله تعالى، فإن الحب في الله والبغض فيه واجب عليّ وعليك وعلى جميع المكلفين، ولست أدري أي غرض لك في حرصك على الإنكار على الساعين في إعظام حرمات الدين ونصيحة السلطان والمسلمين؟ فيا ظالم نفسه، إنته عن هذا وارجع عن طريقة المباهتين المعاندين، وأعجب من هذا تكرير الإرسال إليّ بزعمك الفاسد كالمتوعد إن لم ينكف أخذت منه دار الحديث، فيا ظالم نفسه وجاهل الخير وتاركه، أطلعت على

قلبي أني متهافت عليها أو علمت أني منحصر فيها أو تحققت أني معتمد عليها مستند إليها، أو عرفت أني أعتقد انحصار رزقي فيها، أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها؟ ولو فرض تهافتي عليها أكنت أؤثرها على مصلحة عامة للمسلمين مشتملة على نصيحة الله وكتابه ورسوله ﷺ والسلطان وعامة المسلمين؟ هذا لم أفعله ولا أفعله إن شاء الله تعالى، وكيف تتوهم أني أترك نصيحة الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامتهم مخافة من خيالاتك؟ إن هذه لغباوة منك عظيمة، ويا عجباً منك كيف تقول هذا أأنت رب العالمين بيدك خزائن السماوات والأرضين، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين! أم أنت سلطان الوقت تحكم في الرعية بما تريد، فلو كنت عاقلاً ما تهجمت على التفوه بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلاَّ ربّ العالمين أو سلطان الوقت، مع أن سلطان الوقت منزَّه عن قولك الباطل، مرتفع المحل عن فعل ما ذكرت يا ظالم، فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك فقد أفتت عليه واجترأت على أمر عظيم ونسبته إلى الظلم عدواناً، وإن كنت تقوله عنه فقد كذبت عليه فإنه بحمد الله حسن الاعتقاد في الشرع وذلك من نعم الله تعالى عليه، والسلطان بحمد الله وفضله أكثر اعتقاداً في الشرع من غيره ومعظم حرماته وليس هو ممن يقابل ناصحه بهذيانات الجاهلين، وترهات المخالفين، بل يقبل نصائحهم كما أمره الله تعالى، واعلم أيها الظالم نفسه أني والله الذي لا إله إلاَّ هو لا أترك شيئاً أقرر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان، والمسلمين في هذه القضية وإن رغمت أنوف الكارهين، وإن كره ذلك أعداء المسلمين وفرق حزب المجادلين، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله تعالى عند هذا السلطان وفّقه الله تعالى لطاعته وتولاه الله ببركاته في هذه القضية غيرة على الشرع وإعظاماً لحرمات الله تعالى وإقامة للدين ونصيحة للسلطان وعامة المسلمين، ويا ظالم نفسه أجلب بخيلك ورجلك إن قدرت واستعن بأهل المشرقين وما بين الخافقين، فإني بحمد الله تعالى في كفاية تامة وأرجو من فضل الله تعالى أنك لا تقوى لمنابذة أقل الناس مرتبة، وأنا بحمد الله تعالى ممن يود القتل في طاعة الله تعالى، أتقوى يا ضعيف الحيل لمنابذتي، أبلغك يا هذا أني لا أؤمن بالقدر؟ أو بلغك أني أعتقد أن الآجال تنقص وأن الأرزاق تتغير؟ أما تفكر في نفسك في قبيح ما أتيته من الفعال وسوء ما نطقت به من المقال، يا ظالم نفسه، من طلب رضى الله تعالى ترده خيالاتك وتمويهاتك وأباطيلك وترهاتك! وبعد هذا كله، أنا أرجو من فضل الله أن يوفّق السلطان أدام الله نعمه عليه لإطلاق هذه البساتين وأن يفعل فيها ما تقر به أعين المؤمنين ويرغم به أنف المخالفين فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]، والسلطان بحمد الله تعالى يفعل الخيرات فما يترك هذه القضية تفوته، واعلم أنك عندي بحمد الله تعالى أقل ممن أهتم بشأنك أو ألتفت

إلى خيالاتك وبطلانك، ولكني أردت أن أعرفك بعض أمري لتدخل نفسك في منابذة المسلمين بأسرهم ومنابذة سلطانهم وفقه الله تعالى على بصيرة منك، وترتفع عنك جهالة بعض الأمر ليكون دخولك بعد ذلك معاندة لا عذر لك فيها، ويا ظالم نفسه، أتتوهم أنه يخفى عليّ وعلى من سلك طريق نصائح المسلمين وولاة الأمر وحماة الدين أنّا لا نعتقد صدق قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: الآية ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلان من خذلهم»، والمراد بهذه الطائفة أهل العلم، كذا قاله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أهل العلم والفهم. وقوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» هذا فيمن كان في واحد من الناس، فكيف الظن بمن هو في عون المسلمين أجمعين!؟ مع إعظام حرمات الشرع ونصيحة السلطان وموالاته وبذل النفس في ذلك، واعلم أني والله لا أتعرض لك بمكروه سوى أن أبغضك لله تعالى، وما امتناعي عن التعرض لك بمكروه من عجز بل أخاف الله رب العالمين من إيذاء من هو من جملة الموحدين، وقد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه أنك إن لم تبادر بالتوبة حلّت بك عقوبة عاجلة تكون بها آية لمن بعدك، ولا يأثم بها أحد من الناس بل هو عدل من الله تعالى يوقعه بك عبرة لمن بعدك فإن كنت ناظراً لنفسك فبادر بالرجوع عن سوء أفعالك، وتدارك ما أسلفته من قبيح فعالك قبل أن يحل بك ما لا تقال به عثرتك ولا تغتر بسلامتك وبروتك ووصلتك، وفكر في قول القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر واريته ... وجامع بددت ما يجمع

والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين.

قلت: وقد أفرد ترجمته بالتصنيف خادمه العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود الدمشقي عرف بابن العطار، الذي كان لشدة ملازمته له وتحققه به يقال له: مختصر النووي، استوفيت مقاصده هنا وهو عمدتي بل عمدة كل من أتى بعده.

ووقع في كلام الذهبي في «سير النبلاء» أنه في ست كراريس، والمتداول بالأيدي في كراس وشيء، فيحتمل أن يكون كتب فيه جميع المراثي ثم حذفها منه

بعض النساخ، ووجدت في نسخة وقفت عليها ما يستأنس به لذلك، وظاهر صنيع الذهبي في تاريخه مشعر بكون التي وقف عليها فيها لم يستوف المراثي فيها، وقد وقفت على نسخة بجميع المراثي بخط تلميذه شيخ شيوخنا المسند شهاب الدين أحمد بن البدر حسن، لأبيه وهو أبو عبد الله محمد بن الواعظ أبي عبد الله محمد بن زكريا بن يحيى بن مسعود بن غنيمة السويداوي عرف هو وأبوه بالقدسي، كتبها بالخانقاه السميساطية بدمشق وهي بسماعه على مؤلفها بقراءة المحدث ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن طغر بك بن الصيرفي سوى ورقتين فبقراءة السويداوي، وذلك في ثلاث مجالس آخرها يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وسبعمائة بمنزل المؤلف بدار الحديث النووية بدمشق وصحح بخطه.

وكتب السويداوي أن المصنف ابتدأ في تصنيفها منتصف شعبان سنة ثمان وسبعمائة ودعا له بقوله: عافاه الله وأحسن عقباه، وسبب ذلك أنه كان أصيب بالفالج من قبيل سنين. ويحتمل أن يكون تصنيفاً آخر وهو بعيد، لكن يستأنس له بما وجدته في كلام الذهبي مدرجاً في كلام ابن العطار مما لم أقف عليه في النسختين. على أن ابن العطار قال ما نصه: ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات. وذكر ابن العطار مما يرغب في مناقب العلماء قول سفيان بن عيينة: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة. وقول محمد بن يونس: ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين، وأنه دونها لتكون سبباً للترحم عليه والدعاء له لما له عليه من الحقوق المتكاثرة التي لا يطيق حصرها.

ووصفه بشيخي وقدوتي، الإمام ذي التصانيف المفيدة، والمؤلفات الحميدة، أوحد دهره، وفريد عصره، الصوام القوام الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة صاحب الأخلاق الرضية، والمحاسن السنية، العالم الرباني المتفق على علمه وإمامته، وجلالته وزهده، وورعه وعبادته، وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته، له الكرامات الطافحة، والمكرمات الواضحة، والمؤثر بنفسه وماله للمسلمين والعالم بحقوقهم، وحقوق ولاة أمورهم، بالنصح والدعاء في العالمين مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد عن الخروج من خلاف العلماء ولو كان بعيداً، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب. يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة، وكان محققاً في علمه وفنونه، مدققاً في علمه وكل شؤونه، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بأنواعه كلها من صحيحه وسقيمه، وغريب ألفاظه وصحيح معانيه، واستنباط فقهه، حافظاً لمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من جميع ذلك، وما هجر سالكاً في كل ما ذكر طريق السلف، قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم

والعمل، فبعضها للتصنيف وبعضها للتعليم وبعضها للصلاة وبعضها للتلاوة بالتدبر والذكر لله تعالى، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكذا أفردها التقي محمد بن الحسن اللخمي في أربعة أوراق وقال: إنه كان عالماً بالفقه وفروعه من أقوال الشافعي رحمه الله وأوجه أصحابه، مكث نحو عشرين سنة يفتي ويعلِّم الناس العلم والفقه والحديث والأدب والزهد وكان ليس في عصره في بلاد المسلمين مثله محققاً حافظاً متقناً، ورعاً مدققاً في الحديث، عالماً بصحيحه وحسنه، وسقيمه وغريبه وأحكامه، عارفاً بلغته وأسماء رجاله، وضبطهم وجرحهم وتعديلهم ومواليدهم ووفياتهم، محققاً في الألفاظ المشكلة، له في متونه يد طولى كثير النقل جداً مداوماً للمطالعة والتأليف، عارفاً بفن التصريف وفن العربية واللغة، كثير النقل فيهما عارفاً بالأصلين معرفة جيدة وبالقراءات السبع وغيرها، كثير الخبرة بمذاهب العلماء المشهورة والمهجورة، ليِّن القلب سالكاً طريق السلف في الزهد في الدنيا والمبالغة في الخشوع والورع، غزير الدمعة، كثير الصمت حافظاً للسانه أشد الحفظ، غاضّاً للطرف، طويل الفكر، حسن الأخلاق جداً، إذا آذاه أحد يقول له: يا مبارك الحال، مثابراً على الصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أشد المواطن وأصعبها، محاسباً لنفسه حافظاً لأوقاته قد جزء كل وقت منها لنوع من العمل، فغالبها للاشتغال بالعلم وبعضها للتعليم والعبادة كالصلاة بالليل والتسبيح والقراءة بالتدبر.

أثنى عليه الأئمة الصلحاء العلماء العارفون، وتأسف المسلمون عليه بعد مماته أسفاً بليغاً، وجزعوا عليه جزعاً شديداً الخاص منهم والعام، والمادح في حيال حياته والذام.

وأفردها أيضاً من مدة العلامة الرباني كمال الدين إمام الكاملية وشيخها في جزء سماه «بغية الراوي في ترجمة النواوي» رحمه الله، وقرأها على ما بلغني، العلامة أبو الفضل النويري خطيب مكة شرّفها الله عند ضريح الشيخ نفعنا الله ببركاتهم، وقد أخذها بعض الجماعة فقال: إنه رتبها وزاد عليها لكونه استحسن جمعها وما رضي وضعها، وسماها «تحفة الطالب والمنتهي في ترجمة الإمام النووي»، ومن نفس التسمية يعلم المقصود.

ولو فرض على سبيل التنزل أن صاحب التحفة لم تكثر أوهامه وكان ما زعمه، والعياذ بالله، صحيحاً ما كان يجمل به هذا القول، بل اللائق الأدب مع أهل العلم والولايات وإنزالهم منزلتهم في البدايات والنهايات، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وكأني به ألهمنا الله رشدنا قد أخذ ما وقع لي من الزوائد الفرائد التي لا أعلم من سبقني إليها من غير عزو، غافلاً عن قول القائل: «شكر العلم عزوه لقائله»، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

ومن علمته الآن ترجم الشيخ سوى من تقدم، الشيخ شمس الدين محمد بن الفخر عبد الرحمٰن بن يوسف البعلي، قال فيه: كان إماماً بارعاً حافظاً مفتياً أتقن علوماً شتى وصنّف التصانيف الجمة مع شدّة الورع والزهد، وكان أماراً بالمعروف ناهياً عن المنكر على الأمراء والملوك والناس عامة، فنسأل الله أن يرضى عنه وأن يرضى عنا به.

والشيخ قطب الدين موسى اليونيني الحنبلي قال في ذيله على المرآة لسبط ابن الجوزي المحدث الزاهد العابد الورع المفتخر في العلوم، صاحب التصانيف المفيدة: كان أوحد زمانه في الورع والعبادة والتقلل من الدنيا والإكباب على الإفادة والتصنيف مع شدة التواضع وخشونة الملبس والمأكل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ترجمته له فوائد فرقتها في محالها.

والتاج الفاكهاني المالكي وصفه في خطبة شرح الأربعين بالشيخ الإمام العلامة الزاهد محيى الدين رحمه الله تعالى.

والحافظ العلم البرزالي وصفه في تاريخه المسمى المصفى لتاريخ أبي شامة الذي افتتحه من أول سنة خمس وستين بـ: الشيخ الإمام الحافظ الزاهد. قال: وكان ورعاً متعبداً متقللاً من الدنيا يصوم الدهر.

والكمال جعفر الأدفوي وصفه في كتابه «البدر السافر» بـ: الزاهد الورع، وقال: إنه صنّف تصانيف مفيدة حصل النفع بها ودارت عليه الفتوى بدمشق ومآثره عزيزة غزيرة ومضى على جميل وسداد اهـ.

وقضى وما لينت عليه خطته   من يوم حل بساحة التكليف

قال: وكان فقده من أعظم المصائب وعدمه بلية رمت العباد بسهم من البلاء صائب، رحمه الله ونفعنا ببركته وحشرنا معه في آخرته في دار كرامته.

والحافظ الشمس الذهبي قال في «سير النبلاء»: الشيخ الإمام القدوة الحافظ الزاهد العابد الفقيه المجتهد الرباني شيخ الإسلام حسنة الأنام محيي الدين صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان واشتهرت بأقاصي البلدان، إلى أن قال: لازم الاشتغال والتصنيف محتسباً في ذلك، مبتغياً وجه الله مع التعبد والصوم والتهجد والذكر والأوراد وحفظ الجوارح وذم النفس والصبر على العيش الخشن ملازمة كلية لا مزيد عليها، وكان مع ملازمته التامة للعلم ومواظبته لدقائق العمل وتزكية النفس من شوائب الهوى وسيء الأخلاق ومحقها من أغراضها عارفاً بالحديث قائماً على أكثر فنونه عارفاً برجاله رأساً في نقل المذهب متضلعاً من علوم الإسلام.

وقال في تاريخ الإسلام: مفتي الأمة، شيخ الإسلام، الحافظ النبيه، الزاهد أحد الأعلام، علم الأولياء.

وقال في طبقات الحفاظ في الطبقة الحادية والعشرين منها: شيخ الإسلام، محيي الدين، هو سيد أهل هذه الطبقة، وإنما ذكرته في الطبقة العشرين لتقدم موته رحمة الله تعالى عليه.

والعلامة الدين أبو حفص بن الوردي قال في تاريخه: شيخ الإسلام، العالم الرباني، الزاهد، إلى أن قال: وله سيرة مفردة في علومه وتصانيفه ودينه وتقيته وورعه وزهده وقناعته وتعبده وتهجده وخوفه من الله تعالى، إلى أن قال: وقبره طاهر يزار بنوى، وقد قلت:

لقيت خيراً يا نوى ... وحرست من ألم النوى
فلقد نشأ بك زاهد ... في العلم أخلص ما نوى
وعلى عداه فضله ... فضل الحبوب على النوى

والصلاح خليل بن أيبك الصفدي وصفه في تاريخه المسمى بالوافي بالوفيات[1]: بمفتي الأمة شيخ الإسلام، الحافظ الفقيه الزاهد أحد الأعلام، ولم يأت في ترجمته بفائدة زائدة. وولي الله تعالى العفيف اليافعي قال في تاريخه: شيخ الإسلام، مفتي الأنام المحدث المتقن المحقق المدقق النجيب الحبر، المفيد القريب والبعيد، محرر المذهب وضابطه ومرتبه، أحد العباد الورعين الزهاد، العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة، والسير الحميدة، والتصانيف المفيدة، الذي فاق جميع الأقران وسارت بمحاسنه الركبان، واشتهرت فضائله في سائر البلدان، وشوهدت له الكرامات وارتقى في أعلى المقامات، ناصر السنة ومعتمد الفتاوى، ذو الورع الذي لم يبلغنا مثله عن أحد في زمانه ولا قبله، ولقد بلغني أنه كان يجري دمعه في الليل ويقول:

(لئن كان هذا الدمع يجري صبابة ... على غير ليلى فهو دمع مضيع)

وقد رأيت له منامات تدل على عظم شأنه، ودوام ذكره لله تعالى، وحضوره وعمارة أوقاته، وشدّة هيبته، وتعظيم وعده ووعيده، وحياته بعد موته، وكلمني ودعا لي وغير ذلك مما لا تضبطه العبارة مما تميز به عن العلماء والعباد.

وقال في الإرشاد: رأيته في النوم وعليه هيبة عظيمة تزلزل الجبال كأنما القيامة قامت، وهو يذكر الله ويمجده ويعظم وعده ووعيده، ثم دعا لي وقال: ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) طبعت منه أغلب أجزاءه، وهو يكمل إن شاء الله على خير بدار الكتب العلمية ـ بيروت.

وقال التاج أبو نصر السبكي: مما أنبأني العز أبو محمد عبد الرحيم بن الفرات الحنفي عنه في طبقات الشافعية الكبرى له الشيخ الإمام العلامة محيى الدين أبو زكريا شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين، كان يحيى رحمه الله سيداً وحصوراً وليناً على النفس هصوراً، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذ صير دينه ربعاً معموراً له الزهد والقناعة ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة، هذا مع اليقين في أصناف العلوم فقهاً ومتون أحاديث وأسماء رجال ولغة وتصوفاً وغير ذلك، وأنا إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله، وأدل الخلق على مبلغ مقداره، بمختصر القول وفصله، لم أزد على بيتين أنشدنيهما من لفظه الشيخ الإمام، يعني والده، وكان من حديثهما أنه، أعني الوالد رحمه الله، لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، كان يخرج في الليل إلى أبوابها ليتهجد تجاه الأثر الشريف ويمرِّغ وجهه على البساط، وهذا البساط من زمن الأشرف الواقف وعليه اسمه، وكان النووي يجلس عليه وقت الدرس، فأنشدني الوالد لنفسه:

وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط بها أصبو وآوي
عسى أني أمس بحر وجهي ... مكاناً مسّه قدم النواوي

وأشار في التوشيح أيضاً إلى هذا الصنيع، بل حكى عن والده أيضاً أنه رافق في مسيره وهو راكب بغلته، شيخاً ماشياً فتحادثا فكان في كلام ذاك الشيخ: أنه رأى النواوي قال: ففي الحال نزل الوالد عن بغلته وقبّل يد ذاك الشيخ وهو عامي جلف وسأله الدعاء ثم دعاه حتى أردفه معه وقال: لا أركب وعين رأت وجه النواوي تمشي بين يدي أبداً، وقال: وما زال، يعني الوالد رحمه الله، كثير الأدب معه، يعني النواوي، والمحبة له والاعتقاد فيه.

قلت: وكلامه في تكملة شرح المهذب كما أسلفته يشهد لذلك.

وقال في «الطبقات الوسطى»: الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، حجة الله على اللاحقين، ما رأت الأعين أزهد منه في يقظة ومنام، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة والمناقب الحميدة والخصائل التي جمعت طارف كل فضل وتليدة، والورع الذي خرب به دنياه وجعل دينه معموراً والزهد الذي كان يحيى به سيداً وحصوراً، هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتضى سرياً في أعطانها، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقاماً في أوطانها، أو حلّ في دارة الشمس لأنف من مجاورة سلطانها، وطال ما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم، ونادى بحضرة الأسود الضراغم، وصدع بدين

الله بمقال ذي سريرة يخاف يوم تبلى السرائر، ونطق معتصماً بالباطن الظاهر، غير ملتفت إلى الملك الظاهر، وقبض على دينه والجمر يلتهب، وصمم على مقاله والصارم للأرواح ينتهب، لم يزل طول عمره على طريقة أهل السنة والجماعة، مواظباً على الخير لا يصرف منه ساعة في غير طاعة، إلى أن قال: فكان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، والتطويل بذكر كراماته تطويل في مشهور، وإسهاب في معروف، وقد سافرت لزيارة قبره بنوى وزرته أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وقال في الصغرى: الشيخ محيى الدين أبو زكريا، أستاذ المتأخرين، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل الأقدمين، ذو التصانيف المشهورة.

وقال الجمال الإسنوي في الطبقات: هو محرر المذهب ومهذبه، ومنقحه ومرتبه، سار في الآفاق ذكره، وعلا في العالم محله وقدره، صاحب التصانيف المشهورة المباركة النافعة. وقال نحوه في المهمات وفي شرحه على المنهاج.

وقال الحافظ العماد بن كثير في تاريخه: الشيخ الإمام العالم العلامة، شيخ المذهب وكبير الفقهاء في زمانه ومن حاز قصب السبق دون أقرانه. كان من الزهادة والعبادة والتحري والورع والانجماع عن الناس والتخلي لطلب العلم والتحلي به على جانب لا يقدر عليه غيره، لا يضيع شيئاً من أوقاته.

وقال في طبقات الشافعية: الشيخ الإمام العلامة الحافظ الفقيه النبيل محرر المذهب ومهذبه وضابطه ومرتبه، أحد العباد والعلماء الزهاد، وكان على جانب كبير من العلم والعمل والزهد والتقشف والاقتصاد في العيش والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه ولا قبله بدهر طويل.

وقال قاضي صفد محمد بن عبد الرحمٰن العثماني في ترجمته من الطبقات الكبرى: شيخ الإسلام، بركة الطائفة الشافعية، محيي المذهب ومنقحه ومن استقر العمل بين الفقهاء فيه على ما يرجحه، ولي الله العارف القطب الزاهد والمتقشف الورع المتعفف المعرض عن الدنيا ولذاتها وأهلها وزينتها، الباذل نفسه في نصرة دين الله، المجانب للهوى، أحد العلماء العارفين وعباد الله الصالحين، الجامعين بين العلم والعبادة، والعمل والزهادة، صاحب التصانيف العظيمة، الشائعة الرائعة المباركة النافعة، المتفق عليها بين جميع الموافقين والمخالفين من أئمة الدين.

قال: وهو أحد مشايخ المذهب وأئمته وتصانيفه العمدة فيه، واتفق على زهده وورعه وأنه من الأولياء، قال: ورأيته بمنامي كرتين، إحداهما قرأت عليه في المنهاج،

والثانية مشيت خلفه زماناً فالتفت فرآني فأكرمني، إلى أن قال: وكان من التقلل والورع على أكمل الأحوال.

وقال في «الطبقات الصغرى»: شيخ الإسلام المجمع على إمامته وولايته واستقر العمل في المذهب على ما يرجحه.

وقال السراج أبو حفص ابن الملقن في «العمدة شرح المنهاج»: هو الشيخ الإمام العالم المحقق المدقق المتقن ذو الفنون من العلوم المتكاثرات والتصانيف النافعة المستجادات، الزاهد العابد الورع المعرض عن الدنيا، المقبل بقلبه على الآخرة الباذل نفسه في نصرة دين الله، المجانب للهوى، أحد العلماء الصالحين، وعباد الله العارفين الجامعين بين العبادة والورع والزهادة، المواظبين على وظائف الدين، واتباع هدى سيد المرسلين، محيي السنة والدين.

ووصفه في أول شرح الأربعين بالعلامة الحافظ أبي زكريا قدس الله روحه، ونوّر ضريحه.

وأما في «الطبقات» فلم يذكر شيئاً بل قال: ذكرت أحواله موضحة في شرح المنهاج.

وقال الكمال الدميري في شرحه للمنهاج: الحبر الإمام العلامة شيخ الإسلام قطب دائرة العلماء الأعلام محرر المذهب المتفق على إمامته وديانته، وسؤدده وسيادته وورعه وزهادته، كان ذا كرامات ظاهرة، وآيات باهرة، وسطوات قاهرة، فلذلك أحيى الله ذكره بعد مماته، واعترف أهل العلم بعظيم بركاته، ونفع الله بتصانيفه في حياته وبعد وفاته، فلا يكاد يستغني عنها أحد من أصحاب المذاهب المختلفة، ولا تزال القلوب على محبة ما ألفه مؤتلفة، إلى أن قال: حتى فاق على أهل زمانه ودعى الله في سره وإعلانه، وكان يديم الصيام ولا تزال مقلته ساهرة، ولا يأكل من فواكه دمشق لما في ضمانها من الشبه الظاهرة، ولا يدخل الحمام تنعماً، وانخرط في سلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] وكان يقتات مما يأتيه من قبل أبويه كفافاً ويؤثر على نفسه الذين لا يسألون الناس إلحافاً، ولذلك لم يتزوج إلى أن خرج من الدنيا معافاً، وحج حجتين مبرورتين لا رياء فيهما ولا سمعة، وطهر الله من الفواحش قلبه ولسانه وسمعه.

وقال المؤرخ صارم الدين إبراهيم بن دقماق الحنفي في تاريخه «نزهة الأنام»: الشيخ الإمام القدوة العلامة الزاهد العابد الناسك الخاشع شيخ الوقت فريد العصر بركة الزمان، لم يكن في زمانه مثله في دينه وعمله وعلمه وزهده وورعه وكانت مقاصده جميلة وأفعاله لله تعالى.

وقال الشهاب أبو العباس ابن الهائم في «البحر العجاج شرح المنهاج»: الشيخ الإمام العلامة، الحافظ الفقيه النبيل، محرر المذهب ومهذبه، وضابطه ومرتبه أستاذ المتأخرين، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل الأقدمين في العبادة والورع والزهادة والاقتداء بسيد المرسلين، ذو التصانيف الجامعة المباركة النافعة.

وقال التقي أبو بكر الحصني في شرحه للمنهاج: الإمام العلامة محرر المذهب وضابطه أستاذ المتأخرين الجامع بين العلم والدين، سلك سبيل الأولين في الزهد والعبادة، تصانيفه تذهب دنس القلب وعناده، إلى أن قال: وعليه سكينة ووقار وهيبة من العليم الجبار، الذي اصطفاه وجعله من الخيار، إلى أن قال: وناهيك به أنه قطب الوقت.

وقال الحافظ الشمس بن ناصر الدين الدمشقي في «التبيان لبديعة الزمان» له: الحافظ القدوة الإمام شيخ الإسلام صاحب التصانيف السديدة والمؤلفات النافعة المفيدة، كان فقيه الأمة وعلم الأئمة وأوحد زمانه تبحراً في علوم جمة مع شدة الورع والزهادة وكثرة الصلاح والعبادة والقناعة بالعيش الأخشن واللباس الأدثر والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت عليه هيبة ووقار باهر حتى كان يخاف منه الملك بيبرس الظاهر.

وقال التقي بن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية» له: الفقيه الحافظ الزاهد أحد الأعلام شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا، ولخص ترجمته من ابن العطار وزاد يسيراً.

وقال في الألقاب، منها: عمدة المتأخرين واستيفاء الكلام في هذا المعنى يعسر، فلنذكر سلسلة الفقه التي أوردها العلاء بن العطار في ترجمته تبعاً للشيخ، فإنه ذكرها في تهذيب الأسماء واللغات وقال أنها من المطلوبات المهمات والنفائس الجليلات التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها ويقبح به جهالتها، فإن شيوخه في العلم آباء له في الدين ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهله الأنساب والوصلة بين العبد وبين ربه الكريم الوهاب مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرّهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم!!.

ونقل ابن العطار عن يحيى بن معاذ الرازي أنه قال: العلماء أرأف بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم، لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها وآباؤهم وأمهاتهم يحفظونهم من الدنيا وآفاتها، يعني إذا كانوا علماء فإن الجهال لا يحفظونهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأقول: قد تقدم شيوخه الذين تفقه عليهم فنقول: تفقه الثلاثة،

الأولون منهم وهم المغربي وابن نوح وابن أبي غالب، وكذا ابن رزين بأبي عمر وعثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن الصلاح، وهو بأبيه وهو في طريق العراقيين بأبي سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن أبي عصرون الموصلي، وهو بالقاضي أبي الحسن علي بن إبراهيم الفارقي وهو بأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، وهو بالقاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، وهو بأبي الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح الماسرجسي (ح) وتفقه شيخه سلار على جماعة منهم الإمام أبو بكر الماهاني وهو ووالد ابن الصلاح أيضاً في طريق الخراسانيين بأبي القاسم البرزي عن أبي الحسن علي بن محمد بن عبيد الكياء الهراسي، عن أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف إمام الحرمين عن أبيه عن أبي بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزي الصغير إمام طريق خراسان، عن أبي زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي وهو والماسرجسي ممن تفقه بأبي إسحاق إبراهيم بن محمد المروزي وهو بأبي العباس أحمد بن عمر بن شريح وهو بأبي القاسم عثمان بن بشار الأنماطي، وهو بأبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، وهو بأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وهو بجماعات منهم أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة وسفيان بن عيينة وأبو خالد مسلم بن خالد مفتي مكة وإمام أهلها، فأما مالك فتفقه بربيعة عن أنس وبنافع عن ابن عمر، وأما ابن عيينة فبعمرو بن دينار عن ابن عمر وابن عباس، وأما مسلم فبأبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وهو بأبي محمد عطاء بن أبي رباح أسلم، وهو بابن عباس وكل من ابن عباس وابن عمر وأنس برسول الله ﷺ، وكذا أخذ ابن عباس عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وجماعة من الصحابة الذين أخذوا عنه ﷺ تسليماً.

قال الشيخ: ومعلوم أن كل واحد من هؤلاء أخذ عن جماعة، بل جماعات، لكن أردت الاختصار وبيان واحد من شيوخ كل واحد هو أجلهم وأشهرهم.

قلت: وقد كان في مدونات كل من شيخنا العلامة المحدث الشمس أبي عبد الله محمد بن الجمال الرشيدي الشافعي الخطيب، والبرهان إبراهيم بن صدقة الصالحي الحنبلي رحمهما الله تعالى من تصانيف الشيخ عدة سمعناها على المقرىء الشمس محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن الحجازي عرف بالرفاء وهي كتاب الأربعين بإشاراتها والأذكار والرياض والتبيان، زاد الرشيدي الترخيص بالقيام، وأنه سمع وحده على التقي أبي الفتح محمد بن أحمد بن حاتم الخطيب مواضع من الأذكار وذلك من باب: «ما يقول إذا دخل في الصلاة»، إلى باب: «كراهة النوم»، ومن: «الأذكار في صلوات مخصوصة»، إلى «المدح»، ومن «النهي عن الكذب» إلى آخر الكتاب، وأجازه بسائره

وزاد الصالحي التقريب، وأنه سمع وحده على الزين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن المبارك الغزي ابن الشيخة، منها الرياض فقط بسماع الرفاء للأربعين مع الإشارة على القاضي علم الدين أبي الربيع سليمان بن سالم بن عبد الناصر الغزي والمحب أبي العباس أحمد بن يوسف الحلاطي والبدر أبي محمد الحسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم الأنصاري اللخمي، قال الأولان: أنابها العلامة أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود بن العطار، وقال الثابت أنابها القاضي الجمال سليمان بن عمر الزرعي الشافعي قالا أنابها مؤلفها وبقراءته أعني الرفاء للأذكار على أبي الربيع الغزي والبدر اللخمي المذكورين.

قال أولهما: أنا ابن العطار، وقال ثانيهما: أنا الزرعي، قالا: أنا مؤلفه، وبرواية ابن حاتم له غالباً من الشرف أبي بكر بن قاسم بن أبي بكر الرحبي وناصر الدين محمد بن السنفدي الصيرفي، وسيف الدين أبي بكر بن محمد بن يحيى بن سنقر المعالي سماعاً بإجازتهم من مؤلفه وبسماعه، أعني الرفاء للرياض على أبي الربيع، والخلاطي المذكور قالا: أنا ابن العطار وبرواية ابن الشيخة له أعلا من هذا عن القاضي البدر أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة، إذناً عاماً كلاهما عن مؤلفه وبسماع الرفاء للتبيان والتقريب معاً على القاضي العز أبي عمر عبد العزيز بن البدر محمد بن إبراهيم بن جماعة، قال: أنابهما والدي سماعاً، أنابهما المؤلف وبسماعه للترخيص على العز ابن جماعة وأبي الربيع الغزي قال الأول: أنا والدي البدر، وقال الثاني: أنا ابن العطار. قالا: أنا المؤلف.

وفي مرويات شيخنا الشرف أبي الفتح محمد بن الزين أبي بكر بن الحسين المراغي الشافعي، منها تصحيح التنبيه وتحرير ألفاظه والمنهاج والأذكار، فأما ما عدا المنهاج فتناولها من والده وأجاز له روايتها عنه بإجازته من الحافظ أبي الحجاج المزي وأبي الفرج عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الهادي والصدر أبي الفتح الميدومي كلهم من مؤلفها.

وأما المنهاج فعرض مواضع منه على الحافظ الزين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي وأجازه بسائره عن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي البركات النعماني عن مؤلفه، وفي مرويات أستاذي شيخ مشايخ الإسلام رحمه الله، الرياض والأذكار والمنهاج كلها عن العلامة البرهاني أبي إسحٰق إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي سماعاً عليه لمعظم الرياض ولجميع المنهاج وقراءة عليه لبعض الأذكار.

وكذا كان شيخنا الزين عبد الغني بن محمد بن محمد السمنودي، سمع المنهاج

والتقريب كلاهما على التنوخي برواية التنوخي للرياض والأذكار عن العلاء بن العطار، أنابهما المؤلف وللتقريب عن البدر بن جماعة وابن العطار بسماعهما له على مؤلفه، وللمنهاج عن الشمس محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدرة بن علي القرشي الشافعي عرف بابن القماح، وإجازته المكاتبة من العلاء أبي الحسن العطار في سنة ست عشرة وسبعمائة، والمشافهة من الشرف أبي محمد هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم ابن البارزي القاضي، والشمس محمد بن أبي بكر بن إبراهيم النقيب الحلبي في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ومن البدر محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة القاضي، والحافظ الجمال أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمٰن بن يوسف المزي، وأبي الفرج عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الباريء المقدسي، والصدر أبي الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم الميدومي، وأبي نعيم أحمد المدعو بكار بن التقي عبيد بن عباس بن محمد بن بكار الأشعروي، وأبي العباس أحمد بن كشتقدي الصرفي مشافهة ومكاتبة بإجازة ابن القماح إن لم يكن خاصاً فعاماً، وسماع الخمسة بعده وإجازة الباقين من مؤلفه.

قلت: وممن أجاز التنوخي ممن أخذ عن النووي علي بن أيوب بن منصور المقدسي، ولذا كان في مرويات المجد محمد بن محمد بن علي الحريري الحنفي إمام الصرغمشية الأربعين مع ما بآخرها، سمعها على النجم محمد بن علي النابلسي بسماعه لها على ابن عبد الهادي، أنابها مؤلفها، وفي قيد الحياة الآن من يرويها سماعاً على الشرف أبي الطاهر محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن اللوبك عن المزي وابن عبد الهادي كلاهما عنه، كما أن الشيخ الجلال أبا المعالي القمصي الشافعي نفع الله ببركته في مروياته الأذكار سمع من أوله إلى «الأذكار في الدعوات»، ومن أذكار «الجهاد إلى آداب ومسائل من السلام» على الشهاب أحمد بن حسن البطائحي الشافعي والشرف أبي الطاهر بن الكويك، وأجازاه بسائره وسمعه عليهما بتمامه الرضا محمد بن محمد الأوجافي، وهو الآن في الإحياء أيضاً بسماع البطائحي لجميعه على أبي الربيع العزي بقراءته له على ابن العطار وبإجازة ابن الكويك من المزي قالا: أنا به المؤلف، قال الأول: قراءة، والثاني: إذناً.

و«المنهاج» عرض القمصي مواضع منه على حافظ العصر الزين العراقي وأجازه بسائره عن النعماني، وكذا في الموجودين في مسندة الدنيا الآن أم الفضل عزيزة المدعوة هاجر ابنة الشرف القدسي، سمعت الرياض على التنوخي بسنده، ثم إنها انتقلت بالوفاة، وبعدهما القمصي كلاهما إلى رحمة الله تعالى.

وأما أنا فسمعت بعضاً من جملة من تصانيفه على بعض من تقدم، والرياض

بتمامه على غير المذكورة، وأروي جميع تصانيفه وسائر ما أثبته في هذا التصنيف من كلامه، عن الشيخ أبي هريرة عبد الرحمٰن بن عمر القباني إجازة مكاتبة عن الصدر الميدومي وأبي عبد الله بن الخباز كلاهما عن مؤلفها، وهذا لا يوجد الآن أقل عدداً منه، فلنورد به أحاديث من طريقه:

الحديث الأول: أنبأني أبو هريرة عن المذكورين أنبأنا القطب شيخ الإسلام أبو زكريا النووي رحمه الله أنا شيخنا الإمام الحافظ أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن المفرج بن بكار المقدسي النابلسي ثم الدمشقي، أنا أبو اليمن الكندي أنا محمد بن عبد الباقي الأنصاري أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري أنا أبو الحسين محمد بن المظفر الحافظ أنا أبو بكر محمد بن محمد بن سليمان الواسطي، نبأ أبو نعيم عبيد بن هشام الحلبي نبأ ابن المبارك عن يحيى بن سعيد هو الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

وأخبرنيه عالياً متصلاً من غير طريق الشيخ خاتمة مسندي مصر أم محمد سارة ابنة السراج أبي حفص عمر بن العز عبد العزيز بن البدر بن جماعة قراءة عليها، وأنا أسمع بمنزلها بالقاهرة عن الصلاح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي عمراناً الفخر أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي، أنا أبو حفص عمر بن محمد بن معمر البغدادي، أنا أبو القاسم هبة الله بن محمد السنبائي، أنا أبو طالب محمد بن محمد بن غيلان، أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي، حدثنا محمد بن ربح وعبد الله بن روح قالا: نبأ يزيد بن هارون نبأ يحيى بن سعيد بإسناده نحوه وهو حديث صحيح جليل القدر عظيم الموقع، أجمع أهل النقل على صحته وثبوته، اتفق الشيخان على تخريجه من طريق يحيى، لكن طريق ابن المبارك بخصوصها التي أوردها الشيخ منها انفرد بها مسلم ووافقه على تخريجها من أصحاب السنن النسائي، كما أن طريق يزيد التي أوردتها انفرد بها مسلم أيضاً ووافقه على تخريجها منهم كذلك ابن ماجه.

فأما الأول فرواه مسلم عن أبي كريب والنسائي عن سليمان بن منصور كلاهما عن ابن المبارك. وأما الثاني فرواه مسلم أيضاً عن محمد بن عبد الله بن نمير وابن

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥).

ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن يزيد بن هارون، وهو عند أحمد في مسنده عن يزيد، فوافقناه فيه بعلو ووقع لنا بدلاً للآخرين مع العلو أيضاً على طريقي مسلم وابن ماجه الثابتة والله الموفق اهـ.

الحديث الثاني: وبه إلى النووي رحمه الله تعالى قال: أنا شيخنا الحافظ أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي ثم الدمشقي رحمه الله، أنا أبو طالب عبد الله وأبو منصور يونس وأبو القاسم حسين بن هبة الله بن صصرى وأبو يعلى حمزة وأبو الطاهر إسماعيل قالوا: أنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن هو ابن عساكر، أنا الزين أبو القاسم علي بن إبراهيم بن العباس الحسيني خطيب دمشق بها، أنا أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن سلوان، أنا أبو القاسم الفضل بن جعفر، أنا أبو بكر عبد الرحمٰن بن القاسم بن الفرج الهاشمي، نبأ أبو مشهر عبد الأعلى بن مشهر نبأ سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنكم الذين تخطئون بالليل والنهار وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي كلكم جائع إلاً من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلاً من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم ما سأل لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلاً كما ينقص البحر أن يغمس المخيط فيه غمسة واحدة، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاً نفسه»(١).

قال أبو مشهر: قال سعيد بن عبد العزيز: كان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه، وأخبرنيه عالياً متصلاً أبو المعالي بن أحمد الدمشقي بالقاهرة، قال: أنا أبو هريرة بن الحافظ أبي عبد الله الذهبي الدمشقي قال: أنا إليها أبو

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤)، والطيالسي في مسنده (١/ ٦٢)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٤١)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٩٢)، ومعمر في جامعه (١١/ ١٩٢)، وابن حبان (٢/ ٣٨٥)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٧٢)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٨٢)، وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٢٢٣، ٣٣٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٨٧).

محمد القاسم بن المظفر بن محمود بن عساكر الدمشقي، أنا عم أبي العز النسابة أبو عبد الله محمد بن تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقي، أنا عم أبي الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي، أنا أبو طالب الخضر بن هبة الله بن طاوس سماعاً قالا: أنا الشريف أبو القاسم به مثله وهو حديث صحيح عال جليل الإسناد عظيم الموقع حسن التسلسل بالدمشقيين الثقات، فإن كلهم من أهلها إلاَّ الصحابي رضي الله عنه وقد دخلها وكذا دخلتها. أخرجه مسلم في صحيحه منفرداً به عن محمد بن إسحاق الصاغاني، ورواه الطبراني عن أبي زرعة الدمشقي كلاهما عن أبي مشهر، فوقع لنا بدلاً لهما عالياً بدر حنين وقد جرد أبو مشهر إسناده ولكن خولف فيه كما بين في غير هذا الموضع.

ووقع في تخريج أربعي الشيخ لشيخنا ما نصه: وقد رواه الإمام أبو زكريا النووي في آخر كتاب الأذكار له من هذا الوجه، فكان بينه وبين ابن الموازيني المذكور في روايتنا ثلاثة أنفس اهـ.

ولم يخرجه النووي كما رأيت من طريق ابن الموازيني، إنما أورده من طريق الشريف أبي القاسم وهو رفيق ابن الموازيني في الرواية له عن ابن سلوان، وكذا رواه في آخر الإرشاد وكأن شيخنا رحمه الله أراد أن يقول: الشريف، فسبق القلم، ويؤيده أنه أورده في «الأربعين» التي خرجها لشيخه البلقيني على الصواب حيث قال: وقد رواه الشيخ الإمام العلامة محيى الدين النووي في آخر كتاب «الأذكار» له عن شيخه خالد النابلسي، عن أبي القاسم بن صصرى وغيره عن أبي القاسم ابن عساكر عن أبي القاسم الخطيب عن ابن سلوان، قال الشيخ رحمه الله عقب إيراده في «الإرشاد»: ورجال إسناده مني إلى أبي ذر كلهم دمشقيون وقد دخل أبو ذر دمشق فاجتمع في هذا الحديث جمل من الفوائد، منها صحة إسناده ومتنه وعلوه وتسلسله بالدمشقيين رضي الله عنهم وبارك فيهم، وهذا في غاية الندرة والحسن، وحصل تعريف أوطان رواته بكلمة واحدة: دمشقيون. ومنها ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة في أصول الدين وفروعه والآداب وغيرها ولله الحمد.

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا ولله الحمد.

الحديث الثالث: وبه إلى النووي رحمه الله قال: أنا خالد بن يوسف بن سعد النابلسي الحافظ، أنا زيد بن الحسن هو الكندي، أنا المبارك بن الحسين، يعني الواسطي، أنا علي بن أحمد هو ابن البشري، أنا محمد بن عبد الرحمٰن هو أبو طاهر المخلص، نبأ عبد الله هو البغوي نبأ سفيان نبأ حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الشهادة صادقاً من قلبه أعطها ولو لم

تصبه» وأخبرنيه غير واحد عن أبي إسحاق التنوخي عن العلاء بن العطار قال: أنبأ ست العرب ابنة يحيى قالت: أنا الكندي به وأخبرني به عالياً العز أبو محمد الحنفي عن أم محمد ابنة محمد بن الفخر قالت: أنا جدي الفخر بن البخاري قراءة عليه وأنا شاهدة في الثالثة، أنا أبو اليمن زيد بن الحسن فذكره، وهو حديث صحيح أيضاً انفرد به مسلم فرواه في الجهاد من صحيحه.

وكذا أخرجه أبو يعلى في مسنده كلاهما عن شيبان فوافقناهما فيه بعلو، ورواه أبو عوانة في صحيحه المستخرج على مسلم عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد البغدادي وأخي خطاب كلاهما عن شيبان فوقع لنا بدلاً له عالياً، وكذا رواه غير المذكورين عن شيبان، بل رواه مؤمل أيضاً عن حماد وزاد فيه: «وإن مات على فراشه»، وقد عزى صاحب مسند الفردوس هذا الحديث لابن ماجه، والذي فيه حديث سهل بن حنيف الذي أخرجه مسلم أيضاً لا أنس، والله الموفق اهـ.

وفي الإرشاد للشيخ حديث عبد الله بن حوالة مرفوعاً: «إنكم ستجندون أجناداً»[١] أورده أيضاً من نسخة أبي مشهر بإسناده وتكلم عليه، لكننا اقتصرنا هنا على إيراد ثلاثة أحاديث والله المستعان، انتهى.

وبه إلى النووي بإسناده الماضي في الحديث الثالث إلى الحافظ أبي القاسم بن عساكر أنه أنشدهم لنفسه:

واظب على جمع الحديث وكتبه ... واجهد على تصحيحه في كتبه
واسمعه من أربابه نقلاً كما ... سمعوه من أشياخهم تسعد به
واعرف ثقات رواته من غيرهم ... كيما تميز صدقه من كذبه
فهو المفسر للكتاب وإنما ... نطق النبي لنا به عن ربّه
وتفهم الأخبار تعرف حلّه ... من حرمه مع فرضه من ندبه
وهو المبين للعباد بشرحه ... سنن النبي المصطفى مع صحبه
وتتبع العالي الصحيح فإنه ... قرب إلى الرحمٰن تحظ بقربه
وتجنب التصحيف فيه فربما ... أدى إلى تحريفه بل قلبه
واترك مقالة من لحاك بجهله ... عن كتبه أو بدعة في قلبه
فكفى المحدث رفعة أن يرتضي ... ويعد من أهل الحديث وحزبه

(١) رواه البزار والطبراني كما في مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/٥٨).

روى هذا الشعر الشيخ في الإرشاد وأورده أبو القاسم النجيبي عن أبي عثمان بن زيدون عن أبي العباس بن فرج قال: أنشدنا النووي به، فمن حيث العدد تساويت فيه مع النجيبي وكأني وإياه في طبقة واحدة، بل وقع لي أعلا بدرجة أخرى لكن من غير طريق الشيخ.

أخبرني أستاذي أبو الفضل العسقلاني رحمه الله: أنا أبو الحسن الخطيب عن أبي محمد بن عساكر، أنا عم ابن أبي عبد الله النسابة، أنا عم أبي الحافظ أبو القاسم فذكرها فكأني رويته عن أصحاب الشيخ وكان النجيبي سمعه مني وابنه الفضل، وبه إلى النووي.

قال في تهذيب الأسماء واللغات: أخبرني أبو محمد الأنباري، أنا الحرستاني أنا أبو الفتح نصر المقدسي، أنا أبو الفضل أحمد بن محمد الفراتي، سمعت جدي أنا عمرو الفراتي يقول: سمعت أبا منصور محمد بن أحمد بن حمشاد يقول: سمعت الأستاذ أبا الوليد حسان بن محمد القرشي يقول: سمعت أبا الفضل البلعمي يقول: دخل محمد بن نصر المروزي رحمه الله على إسماعيل بن أحمد والي خراسان فقام له وبجله وأبلغ في تعظيمه وإجلاله، فلما خرج عاتبه أخوه إسحاق بن أحمد على ذلك، فقال له إسماعيل: إنما قمت إجلالاً لأخبار رسول الله ﷺ. ثم إن إسماعيل رأى رسول الله ﷺ في النوم فقال له: قمت لمحمد بن نصر إجلالاً لأخباري لأحرم بيت ملكك وملك بنيك لإجلالك له وذهب ملك أخيك إسحاق وملك بنيه لاستخفافه لمحمد بن نصر. قال: فبقي ملك إسماعيل وبنيه أكثر من مائة وعشرين سنة، انتهى.

ومما وقع لمحمد بن نصر أيضاً كما رويناه في المستجاد من تاريخ بغداد للخطيب من طريق أبي العباس البكري قال: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر رضي الله عنهم، فأملقوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضرهم الجوع، فأجمعوا الليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يسهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق الباب ففتحوا له ونزل عن دابته وقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هذا، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن هارون؟ فقالوا: هو هذا، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو هذا يصلي، فلما فرغ

دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً، ثم قال: إن الأمير كان مائلاً بالأمس فرأى في المنام خيالاً قال: إن المحمدين مذ طووا كشحهم جياعاً، فأنفذ إليكم هذه الصرار وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إليّ أمدكم.

ووجد بخطه رحمه الله ما نصه: دعاء جمعه شيخنا الإمام العالم الجليل تقي الدين أبو محمد بن إبراهيم بن أبي اليسر أملاه علينا يوم الخميس العشرين من ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة: «إلٰهي إن حسناتي لا تنفعك وسيئاتي لا تضرك وأنت الغني عني وأنا الفقير إليك والفقر إليك موجب الغنى بك، إذ في تأميلك بلوغ المأمول وفي قصدك نيل السول، فتقبل مني ما لا ينفعك، واغفر لي ما لا يضرك، وارحم فاقتي وفقري وضعفي وضري فإني أستحي أن أسألك الجنة بحسناتي وأنا لا أرضاها وأنت أولى بالمغفرة بحبك العفو عن سيئات أخشاها، فالسيئات مني موجبة لعفوك عني يا من وسعت رحمته كل شيء وغمرت نعمته كل حي لقد ربح عبد في معاملته لمن يقول كل يعمل على شاكلته، فشاكلتي ما تعلم وشاكلتك أن تعفو وترحم، يا من سنّ الفضل والجميل أنت حسبي ونعم الوكيل».

ووجد بخط الشيخ أبي الخير محمد بن أحمد بن يوسف الزرندي المدني قال: وجدت بخط قاضي المسلمين العز أبي عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة قال: وجدت بخط الشيخ محيى الدين النووي حكاية عن بعض الصالحين، أنه ما دعا الله أحد بهذا المنظوم إلاَّ استجيب له، قلت: وذكر ما أخبرني به العز أبو محمد القاضي عن أبي عبد الله الخزرجي، أنبأنا أبو الفضل بن عساكر عن أبي الخطاب عمر بن الحسن دحية (ج) وأخبرني به شيخي إمام الأئمة أبو الفضل العسقلاني وغيره عن أبي الفرج الغزي سماعاً، أنا أبو النور الدابوس عن أبي محمد عبد المنعم بن مفاد كلاهما عن الإمام أبي زيد السهيلي قال عبد المنعم إجازة، وقال ابن جحية، فيما أنشدنيه لنفسه وذكر أنه ما سأل الله تعالى أحد به شيئاً إلاَّ أعطاه إياه:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من حزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... وبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

غير أن البيت السادس لم يوجد بخط النووي.

انتهى. مات رحمه الله بنوى في الثلث الأخير من الليل ليلة الأربعاء أربع عشري رجب سنة ست وسبعين وستمائة، ودفن بها من الغد بعد أن امتثل أمر بعض الصالحين في واقعة جرت بزيارة بيت المقدس والخليل عليه السلام، فإنه قال لي: قد أذن لي في السفر، فقلت: كيف ذلك؟ قال: بينا أنا جالس هنا، وأشار إلى بيته بالرواحية وتجاهه طاقة مشرفة عليها، مستقبل القبلة إذ مر عليّ شخص في الهوى من هنا ومر كذا يسيراً من غرب المدرسة إلى شرقها، وقال: قم سافر لزيارة القدس.

قال العلماء: وكنت حملت كلام الشيخ على ظاهره ثم تبين لي أنه إنما عنى السفر الحقيقي، ولما انتهى من حكاية ذلك قال لي: قم حتى نودع أصحابنا وأحبابنا، قال: فخرجت معه إلى المقبرة التي بها بعض شيوخه فزار وقرأ شيئاً ودعى وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء كالشيخ يوسف البقاعي والشيخ محمد الأخميمي والشيخ شمس الدين بن أبي عمر، وسافر صبيحة ذلك اليوم إلى نوى، ثم زار القدس والخليل عليه السلام ثم عاد إلى نوى ومرض عقب زيارته بها وهو في بيت والده، فبلغني مرضه فتوجهت من دمشق لعيادته فسر بذلك ثم أمرني بالرجوع إلى أهلي، فودعته بعد أن أشرف على العافية في يوم السبت العشرين من رجب وانصرفت، فتوفي بعد أيام كما سبق.

وكان قبل قوله أذن لي في السفر بأيام يسيرة أرسل إليه فقير إبريقاً فقبله وقال: قد أرسل إليّ فقير آخر زربولاً وهذا إبريق وذلك آلة السفر، كما تقدمت الحكاية، واتفق أنه بينا أنا نائم ليلة وفاته رأيت كأن منادياً ينادي عليّ بيده جامع دمشق يوم جمعة: الصلاة على الشيخ ركن الدين الموقع، وصاح الناس لذلك النداء واستيقظت فقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٦] فلم نلبث أن جاء الخبر لدمشق في ليلة الجمعة بوفاته ونودي عقب صلاة الجمعة بجامع دمشق بذلك، وصلينا عليه هناك صلاة الغائب وتأسف المسلمون عليه تأسفاً بليغاً، الخاص والعام والمادح والذام.

قلت: وأفاد التاج السبكي في الطبقات الوسطى: إنه قبل ظهوره إلى نوى رد الكتب المستعارة عنده من الأوقاف جميعها.

وقال اللخمي في ترجمته المفردة حكاية عن غير واحد من العلماء بدمشق: أنه لما خرج منها إلى نوى خرج معه جماعة من العلماء وغيرهم لظاهر دمشق وسألوه متى الاجتماع؟ فقال: بعد مائتي سنة، فعلموا أنه عنى القيامة، وسافر إلى أبويه ثم مرض. قال: ولما مات بنوى ارتجت دمشق وما حولها بالبكاء وتأسف عليه المسلمون أسفاً

شديداً وأحيوا ليالي كثيرة لسنته.

قال القطب اليونيني: ولما وصل الخبر بوفاته لدمشق توجه قاضي القضاة عز الدين محمد بن الصائغ وجماعة من أصحابه إلى نوى للصلاة على قبره، قال: وكان يسأل أن يموت بأرض فلسطين، فاستجاب الله تعالى منه، وكذا قال ابن العطار، سرت إلى نوى صحبة قاضي القضاة أبي المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري لتعزية والده وأقاربه وأقمت عندهم أياماً.

قال الذهبي: ورثاه غير واحد يبلغون عشرين نفساً بأكثر من ستمائة بيت منهم مجد الدين بن الظهير وقاضي القضاة نجم الدين بن صصرى، ومجد الدين بن المهيار، وعلاء الدين الكندي، والعفيف التلمساني الشاعر أورد الكثير من ذلك ابن العطار، انتهى كلام الذهبي.

ومجموع من أوردهم ابن العطار أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب، والنجم أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم بن الحسن بن صصرى الشافعي قال: وعتبه بعض مشايخه على ذلك فقال له: أدامت رتبتك بأحسن منها، وأبو العباس أحمد الواسطي الضرير ويلقب بالجلال، وأبو محمد إسماعيل البسطي وكانت وفاته بعد الشيخ بأربعة وعشرين يوماً، والتقى الحسيني بن صدقة بن بدران الموصلي وسلطان إمام الروحانية والعفيف أبو محمد سليمان بن علي التلمساني وأبو محمد عبد الله الأندلسي، والعلاء أبو الحسن علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي الوداعي، والمجد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الإربلي الحنفي مدرس العمارية بدمشق، عرف بابن الظهير، وأبو عبد الله محمد المنيحي الدمشقي أحد فقهاء المدرسة الناصرية بدمشق شاعر أديب مفلق، وأظنه البدر بن عمر بن أحمد المهذب بن عمرو بن علي الزرعي، والمجد أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله المصري ثم الدمشقي الكاتب، عرف بابن المهيار.

فهؤلاء ثلاثة عشر نفساً وجماعة سبعة أيضاً لم يسمهم بل وصف اثنين منهم ببعض الإخوان وواحد ببعض المدرسين بالباذرانية وآخر ببعض الفقهاء المحبين وآخر ببعض فضلاء الحنفية، وباقيهم وهم أربعة ببعض المحبين، وقال إنه سمع من لفظ الأول بدار الحديث النورية قصيدته وهي هائية، وبمجلسه بدار الحديث النورية أيضاً بقراءة قارىء الحديث بها على الثاني قصيدته وهي لامية، وسمعها جماعة وذلك بعد مدة من وفاة الشيخ حين ولاية ناظمها للقضاء سنة اثنين وسبعمائة، وقرأ على عاشرهم في العشر الأول من شعبان سنة ست وسبعين وستمائة قصيدته، وهي لامية تزيد على

ثلاثين بيتاً، وأردفها بأخرى دونها عينية وهي في سباق جميع القصائد طول وعدة أبيات جميعها ستمائة وثلاثون بيتاً.

وأوهم كلام الذهبي أن مجموع ذلك لم يورده ابن العطار بل أكثره، وكأنه لم تقع له النسخة الموفية.

وعاش والد الشيخ بعده نحو عشر سنين، فإنه مات في سنة خمس وثمانين. واختلف قول الذهبي في تعيين الشهر، فمرة قال صفر، ومرة قال رجب، وقد جاوز السبعين وصُلي عليه بدمشق صلاة الغائب، قال: وكان رجلاً مباركاً. انتهى.

ورام أقارب الشيخ ونحوهم أن يبنوا عليه قبة، فرأته عمته أو غيرها في النوم فقال لها: قولي لأخي أو للجماعة لا تفعلوا هذا الذي قد عزموا عليه من البنيان فإنهم كلما بنوا شيئاً تهدم عليهم. فانتبهت منزعجة وحدثتهم بالرؤيا فرجعوا وحوطوا على قبره حجارة ترد الدواب، فرحم الله ثراه وبرّد مضجعه ورضي عنه وجزاه عن المسلمين أفضل الجزاء وحشرنا معه مع من اصطفاه، ونفعنا به إنه على كل شيء قدير.

وهذا آخر ترجمة شيخ الإسلام، بركة الأنام، القطب الرباني أبي زكريا النووي الشافعي، رحمه الله ونفعنا ببركته وبركة علومه.

قال مؤلفه حفظه الله تعالى وأبقاه في خير وعافية: وكان جمعي لها في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً، آمين.

تحفة الكرام

في مناقب سيدي أبي بكر بن قوام

لحفيده الشيخ محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام
المتوفى ٧١٨هـ

تحقيق
أحمد فريد المزيدي

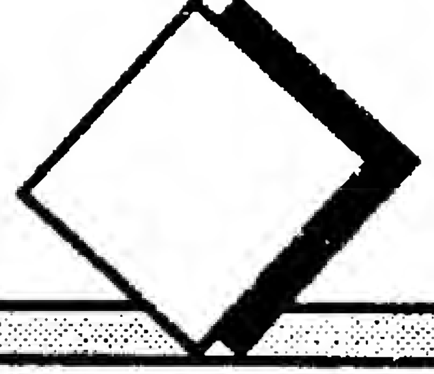
مناقب سيدي أبي العبّاس السّبْتي

تحقيق
أحمد فريد المزيدي

الرَّوضة الرَّيَّا
فيمن دُفن بداريَّا

للإمام عبد الرحمن بن محمد العمادي
المتوفى ١٠٥١هـ

تحقيق
أحمد فرائد المزيدي



ترجمة مختصرة للمؤلف

هو العلاَّمة الفقيه، المفتي المفسِّر المؤرِّخ الصوفي: عبد الرحمٰن بن محمد عماد الدين بن محمد بن محمد بن محمد بن عماد الدين الحنفي الدمشقي.

وُلِدَ رحمه الله في ليلة الثلاثاء ١٤ من شهر ربيع الآخر عام ٩٧٨هـ بدمشق.

من مصنفاته:

١ ـ الروضة الريا فمن دُفن بداريا.

٢ ـ الفتاوى العمادية، بحوزتي نسخة مصورة منه.

٣ ـ المستطاع من الزاد في المناسك. طبع.

٤ ـ ري الصادي من فتاوى العمادي.

٥ ـ تحرير التأويل على الكشاف للزمخشري.

٦ ـ رسالة في طائفة من الفرق الإسلامية.

٧ ـ إصلاح العالم بإفتاء العالم. طبع.

٨ ـ هداية ابن العماد لعبّاد العباد.

توفي رحمه الله في ليلة الأحد ١٧ جمادى الأولى سنة ١٠٥١هـ، عن عمرٍ يزيد على سبعين سنة، ودُفن في مقبرة باب الصغير في دمشق بجوار والده رحمهما الله تعالى.

انظر في ترجمته:

١ ـ خلاصة الأثر للمحبي (٢/ ٣٨٠، ٣٨٩).

٢ ـ منتخبات التواريخ للحضي (ص ٦٠٤).

٣ ـ معجم المؤلفين لكحالة (٥/ ١٩١).

٤ ـ الأعلام للزركلي (٣/ ٣٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نوع لهذه الامة اسباب الخيرات

ووسع لهم ابواب المثوبات والبركات

والصلاة والسلام على نبيه الذي بين

للمؤمنين سبل الطاعات وسن

زيارة الصالحين في الحياة وبعد الممات

وعلى صحابته والتابعين لهم باحسان

على مر الدهور وكر الازمان وبعد فيقول

الفقير الى لطف ربه الخفي وبره الوفي

عبد الرحمن الخادمي الحنفي ان زيارة

الصالحين من اقرب القربات وهي

لاستمداد سحائب البركات من الامور

صورة أول الكتاب

زينب انهلك وفينا الصالحون قال
نعم اذا كثر الخبث الحديث الدارى السابع
روى المسند ابو البقا محمد بن [illegible]
داريا عند ضريح ابي مسلم بسنده الى
عائشه رضي الله عنها قالت سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان حسان
ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم والحمد
لله اولا واخرا وظاهرا
وباطنا ولا حول ولا
قوة الا بالله العلي
العظيم

صورة آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نوَّع لهذه الأمة أسباب الخيراتِ، ووسَّع لهم أبواب المثُوبات والبركات، والصلاةُ والسلام على نبيِّه، الذي بيَّن للمؤمنين سُبُل الطاعات، وحسَّن زيارة الصالحين في الحياة وبعد الممات، وعلى صحابته والتابعين لهم بإحسان على مرِّ الدهور وكرِّ الأزمان. وبعد:

فيقول العبد الفقير إلى لُطْفِ ربِّه الخفيِّ، وبرِّهِ الوفي، عبد الرحمٰن العِمادي، الحنفي:

إنَّ زيارة الصالحين من أقرب القُرُبات، وهي لاستمطارِ سحائِبِ البركات، من الأمور المُجرَّبات، وقد أُمرنا بالتعرُّض للنفحاتِ، ولا شك أنَّ مواطنهم من أكبر مظنَّات إجابة الدعوات[1].

ثم لمَّا كان من أعظم مزاراتِ الشام الموصوفة، مزارات داريَّا الكبرى، القرية المعروفة، جمَعْتُ هذه النُبذة في شأنها، تعريفاً بعِظَم قَدْرِ سُكانها، وتشريفاً للأسماع بذِكْرِ مَن دُفن بمكانها، وسميتها: «الرَّوْضةُ الرَّيَّا، فيمن دُفِنَ بدارَيَّا» عسى أن أُمنح بلمحةٍ من سنا أنوار لمحاتهم، وأُنفح بنفحةٍ من شذَىٰ أسرار نفحاتهم، وما ذلك على الله بعزيز، وهو حسبي ونِعْم الوكيل.

فأقول وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواءِ الطريق: قال القاضي ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمة الشيخ أبي سليمان[2]:

«دارَيَّا: ياؤها مشدَّدة، والنسبة إليها دارانِيٌّ، من شواذِّ النَّسَب، وهي قرية في ناحية يقال لها: وادي العَجَمِ، من نواحي دمشق». انتهى.

---

(١) وقد عُلم عن الإمام شمس الدين الذهبي في سير أعلام النبلاء قوله: والدعاء عند قبور الصالحين مستجاب.

(٢) هو الشيخ عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني، من كبار الزهاد في عصره. وانظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٣١)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢).

قلت: إنما كان من شواذِّ النَّسبِ، لأنها على غير قياس، إذ القياس أن تُحذف الألف الأخيرةُ لوقوعها سادِسةً، كما قالوا: قَبَعْثَرِيُّ نسبة إلى قَبَعْثَرى، ثم تُحذف الياء الأولى وتُقلب الثانية واواً، كما قالوا: قُصَوِيٌّ نسبة إلى قُصَيّ، فكان القياسُ أن يقال في النسبة إليها: دَارَوِيٌّ.

ودَاريّا: وزنها فعليّا، ومثلها من الصِّيغ المسموعة مَرَحَيّا، وبَرَدَيَّا. حكاهما سيبويه[١].

وهي مشتقَّة من الدَّار، والياءُ للتأنيث، وإنما زِيْدت هذه الزوائد دلالة على التكثير. وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

وذلك كما قيل: إنها كانت في الأصل مجمعاً لدُوْرِ «آلِ جَفْنَة» الغسانيين ومنازلهم.

قلت: وآلُ غسَّانَ: هم ملوك الشام، الذين يقول فيهم حسان بن ثابتٍ رضي الله عنه من جملة ما له فيهم من المدائح الحِسانِ[٢]:

أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهِمُ ... قبرِ ابن مارِيَة الكريم المُفْضِلِ
يُغْشونَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُم ... لا يسألونَ عنِ السَّوادِ المُقْبِلِ
بِيْضُ الوجوهِ، كريمَةٌ أحسابُهُم ... شُمُّ الأنوفِ، من الطِّرازِ الأوَّلِ
يَسْقونَ من ورَدَ (البَريصَ) عليهم ... (بردى) يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

ومنهم جبلةُ بنُ الأيْهَم، الذي وفَدَ نهر دمشق مُسْلِماً على عُمر رضي الله عنه في خلافته بخمس مئة فارسٍ، عليهم الدِّيباج، والذهبُ، وعلى رأسه التاجُ، وقُرْطَا مارية المشهوران، ثم وَطِيءَ الفزاريُّ إزَارَهُ في الطَّوافِ فلطَمَهُ.

فقال له عمر رضي الله عنه: إمَّا أن تُرْضِيه، أو تُقِيْدَهُ، فلم يَرْضَ الفزاريُّ إلاَّ أن يقيْدَهُ بلَطْمَةٍ مثلها.

فقال: أتقيْدُ مِنّي وأنا مَلِكٌ؟

فقال عمر رضي الله عنه: أنتما في حُكْم الإسلام سَوَاء.

فقال: أمهلني ثلاثة أيام، فأمهله، فخرج ليلاً إلى قيصر، فمَلَّكَهُ في بلاده، وتنصَّرَ.

---

(١) انظر: الكتاب له (٢/ ٤٢٤).
(٢) الأبيات في ديوانه (ص ١٨٣)، والأغاني (١٥/ ١٦٧).

ثم إنَّ عمر رضي الله عنه أرسل صحابياً إلى قيصر فاجتمع بجَبَلَة فرأى عنده من الخَدَم والحشم والجواهِرِ وأواني الذهب والفضة ما أذهله، فسأل عن عمر، وعن تلك الدِّيارِ، ثم تأوَّهَ، وأنشد[١]:

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ من أجلِ لَطْمَةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكَنَّفَنِي فيها لَجاجٌ ونخوةٌ ... وبِعْتُ بها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليْتَ أمي لم تَلِدْني وليتني ... رجعْتُ إلى القولِ الذي قالَهُ عُمَرْ
ويا ليتني أرْعى المَخَاضَ بقَفْرَةٍ ... وكنتُ أسيراً في ربِيْعَةَ أوْ مُضَرْ

ثم قال جَبَلَةُ للرسولِ: إنْ ضمِنْت لي على عمر ثلاثة أشياءٍ رجعتُ إلى الإسلام: أن يَغفر لي ما سلَفَ، وأن يزوِّجني بنته، وأن يجعلني وليَّ عهده من بعده.

فقال له: أمَّا الثِّنْتانِ: فنعَمْ، وأما الثالثة: فلا.

فرجع الرسول، وأخبر عمر رضي الله عنه، فقال له: ليتَكَ ضمِنْتَ الثالثة ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧]. وقصته مشهورة، وهي بطولها في الكتب مسطورة[٢].

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في تهذيب الأسماء واللغات[٣]: «دَارَيَّا: القرية المشهورة، تحت دمشق، على دونِ ثلاثة أميالٍ. هي بفتح الرَّاءِ، وتشديدِ الياءِ، كان فُضلاءُ السلفِ يسكنونها، وممَّن سكنها من الصحابة رضي الله عنهم: بلالٌ المؤذِّنُ رضي الله عنه.

وبها قبران، مشهوران، يُقْصدان للزيارة، لسيدين جليلين: أبي مسلمِ الخولانيِّ، وأبي سليمان الدارانيِّ، رضي الله عنهما» انتهى.

ولنبدأُ بذكر مناقِبِ الإمام الشريف الذَّات، صاحب المناقِبِ والكرامات، التابعيِّ الجليل، أبي مُسْلم الخولاني رضي الله عنه.

فنقول: قال الحافظ الكبيرُ، المُفسِّرُ، الإمام ابن كثير[٤]: نزل أبو مسلم الخولانيّ بدارَيَّا، من غربيِّ دمشق بعد أن ارتحل من اليمن إلى المدينة، فوجد النبيَّ ﷺ

(١) انظر: الأغاني (١٥/ ١٦٧).
(٢) انظرها في: البداية والنهاية (٨/ ٦٤)، والأغاني (١٥/ ١٦٢).
(٣) في (٣/ ١٠٨).
(٤) في البداية والنهاية (٦/ ٢٨٨).

قد قُبِضَ ذلك العام، فرأى أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم. وكان لا يسبِقُهُ أحد إلى المسجد الجامع بدمشق، من داريًا، في أوقات الصلواتِ الخمسِ، ولا سيما وقت الصبح.

وكان مُلازماً للجهاد في كلِّ سنة، يغزو بلاد الرُّومِ، مع أصحاب له خاصة.

وله أحوالٌ، وكراماتٌ كثيرةٌ، وقبرُهُ مشهورٌ بداريًا.

وكان مقامُهُ بها إذا قفَلَ من غزوِ الرُّومِ(١).

روى الحافظ ابن عساكرٍ عنه أمراً غريباً، وشأناً عجيباً، بسنده، من طريق إسحاق بن نجيح الملطيِّ، عن الإمام المجتهِدِ الأوزاعي، التابعيّ الجليل رضي الله عنه قال: أتى أبا مُسلم الخولاني نفرٌ من قومه ـ يعني الخولانِيِّين ـ من اليمن فقالوا: يا أبا مسلم أما تشتاقَ إلى الحجِّ؟ فقال: بلى، لو أصَبْتُ لي أصحاباً. فقالوا: نحن أصحابُكَ. فقال: لستم لي بأصحابٍ. إنما أصحابي قومٌ لا يريدون الزَّاد ولا المزادَ. فقالوا: سبحان الله! كيف يسافر قومٌ بلا زادٍ ولا مزادٍ؟ فقال لهم: ألا ترون إلى الطَّيْر، تَغْدُو تروح بلا زادٍ ولا مزادٍ، والله يرزقها؟ قال: فقالوا: إنَّا نسافِرُ معك. قال: تهيَّؤُوا على بركَةِ الله تعالى. قال: فغَدَوا من دمشق ليس معهم زادٌ ولا مزادٌ، فلما أتوا إلى المنزل فقالوا: يا أبا مسلم، طعام لنا وعلفٌ لدوابِّنا، قال: فقال لهم: نعم.

فتنحى غير بعيدٍ فتيمَّم مسجد أحجار، فصلَّى ركعتين في ذلك المسجد، ثم جثَا على رُكْبتيه، فقال: إلٰهي، قد تعلمُ ما أخرجني من منزلي، وإنما خرجتُ إيثاراً لك على من سواك، وقد رأيتُ البخيل من ولد آدم تنزِلُ به العصابةُ من الناس فيُوسِعهم قِرَى، وأنت الكريم، الغنيُّ، اللطيفُ، الرزَّاقُ، وإنَّا أضيافُك، وزُوَّارُكَ، فأطعِمْنا، واسْقِنا، واعلف دوابنا.

قال: فأُتي بسُفْرةٍ فمُدَّت بين أيديهم، وجيء بجَفْنَةٍ من ثريدٍ تبْخَرُ، وجيءَ بقُلَّتين من ماء وجيءَ بالعلفِ لا يُدْرَى من يأتي بذلك، فلم تزل تلك حالُهُم منذ خرجوا من عند أهلهم حتى رجَعُوا لا يتكَلَّفُون زاداً ولا مزاداً(٢).

قال ابن كثير: فهذه حالُ وليٍّ من أولياء الله تعالى، من هذه الأمة، تُنزَّل عليه وعلى أصحابه كل يوم مائدةٌ مرتين، مع ما يُضاف إليها من الماء، والعلف لدواب أصحابه. وهذا اعتناءٌ عظيم بهذا الرجل، الكبير القدر، وقد شُبِّهَ في تلك المائدة

---

(١) انظره في شمائل الرسول ﷺ للحافظ ابن كثير (ص ٥١٧)، وتاريخ دمشق (ص ٤٩٢، ٤٩٩).
(٢) انظر: تاريخ دمشق (ص ٥٠٩، ٥١٠)، وشمائل الرسول ﷺ لابن كثير (ص ٥٧٢).

بعيسى عليه الصلاة والسلام كما شُبِّهَ في كرامةٍ أُخرى بإبراهيم الخليل وفي كرامَةٍ أخرى بنُوح، وموسى، عليهم الصلاة والسلام[(١)].

وكم له كرامةٍ عظيمة، وبرَكَةٍ جسيمةٍ، وإنما نال ذلك ببركة مُتابعته لنبيِّنا الكريم عليه أفضلُ الصلاة والسلام.

روى البيهقي بسنده من طريق أبي النَّضرِ، عن سليمان بن المُغِيْرةِ: أنَّ أبا مُسلم الخولاني جاء إلى دجْلَةَ، وهي ترْمِي بالخشب لشدَّةِ مرّها فمشى على الماء وتبِعَهُ أصحابه، ثم التفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعِكُم شيئاً، فندعو الله أن يرُدَّهُ؟ قال البيهقي: هذا إسناد صحيح.

وفي رواية ابن عساكر: أنَّه غزَا أرض الروم، فمرُّوا بنهرٍ وقال لأصحابه: أجِيزُوا بسم الله، ومرَّ بين أيديهم فمرُّوا خلْفَهُ على الماءِ، فلم يَبْلُغْ من الدَّواب إلاَّ إلى الرُّكَبِ[(٢)].

قال: فلما جازوا قال للناس: من ذهب له شيء فأنا ضامن له. قال: فألقى بعضهم مخلاةً عمداً، فلما جازوا قال الرجل: مخلاتي يا أبا مسلم وقعت في النهر، فقال له: اتبعني، فإذا المخلاةُ تعلَّقت ببعض أشجار النهر، قال: خذها. ورواه أبو داود من طريق أخرى[(٣)].

ولابن عساكر، عن حميد بن هلالٍ العدويِّ، قال: حدثني ابن عمي قال: خرجت مع أبي مسلم الخولاني في جيشٍ، فأتينا على نهرِ عجَّاج، مُنْكَرٍ، فقلنا لأهل القرية: أين المخاضة؟ فقالوا: ما كانت هٰهنا مخاضة قط ولكن المخاضة أسفل منكم على ليلتين.

فقال أبو مسلم: اللهمَّ أجزْتَ بني إسرائيل البحر، وإنّا عبادُك في سبيلك، فأجزنا هذا النهر اليوم، ثم قال: اعبروا بسم الله. قال ابن عمي: وأنا على فرسٍ، فقلت: لأقذفنَّه أول الناس، خلف أبي مسلم، قال: فوالله ما بلغ الماء بطون الخيل حتى عبر الناس كلهم.

ثم وقف فقال: يا معشر المسلمين هل ذهب لأحدكم شيء فأدعو الله تعالى يردُّهُ[(٤)]؟.

---

(١) انظر: شمائل الرسول ﷺ لابن كثير (ص ٥٧٣).
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ص ٥٠٣).
(٣) رواه أبو داود (٣/ ١٧٨).
(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ص ٥٠٤).

قال ابن كثير: «وهذه مشابهة لمعجزة نوح عليه السلام، في مسيره من فوق السفينة، وبمعجزة موسى عليه السلام في فَلْقِ البحر، وهذه فيها ما هو أعجب من جهة مسيرهم على متن الماء، من غير حائلٍ، ومن جهة أنه ماء جارٍ فالمسير عليه أعجب من السير على الماءِ القارِّ، فهذا خارق، والخارق لا فرق بين أن يكون في بحر أو نهر بل كونه في نهر عجَّاجٍ كالبرق الخاطف، ولم يصل إلى بطونِ الخيل أعظم وأعجب»[١].

ولا شك أن كرامات الأولياء من جنس معجزات أنبيائهم، فمن طعن على الكرامات، فقد طعن على المعجزات[٢].

وروى الحافظ أبو نعيم في «الحِلْيَة» والحافظ ابن عساكر والإمام ابن الزملكاني والحافظ ابن كثير، وغيرهم، عن إسماعيل بن عياش، قال: حدثني شُرَحبيل بن مسلم الخولاني، أن الأسود العنسي الكذَّاب تنبَّأ باليمن فأرسل إلى أبي مسلم الخولانيِّ، فأتى به، فلما جاء قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردَّد عليه ذلك مراراً، وهو يجيبه بما ذُكر، ثم أمر بنارٍ عظيمة فأُجِّجَت وأُلقي فيها أبو مسلم، فلم تضُرَّهُ فقيل للأسود: انْفِهِ من بلادك وإلاَّ أفسد عليك من اتَّبَعك، فأمره بالخروج من بلاده فارتحل أبو مسلم فأتى المدينة وقد قُبِض رسول الله ﷺ فأناخ أبو مسلم راحلته ثم دخل المسجد وقام يُصلي إلى ساريةٍ من سواري المسجد، فبَصُرَ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتاه فقال: ممَّنِ الرَّجل؟ فقال: من أهل اليمن. فقال: ما فعل الرجل الذي أحرقَهُ الكذَّابُ بالنار؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوابٍ. قال: أنشُدُكَ الله، أنتَ هو؟ قال: اللهمَّ نعم. فاعتنقه ثم بكى وذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: الحمد لله الذي لم يُمِتني حتى أراني في أمَّة محمد من فُعل به كما فُعِل بإبراهيم خليل الرحمٰن[٣].

قال إسماعيل بن عياشٍ: وأنا أدركت رجالاً من اليمن خولانيين، يجتمعون مع العنسيين، فقال الخولانيونَ للعنسيين: صاحبكم الكذاب أحرق صاحبنا بالنار فلم تضرّهُ.

---

(١) انظر: شمائل الرسول ﷺ (ص ٥٠٦).

(٢) كرامات أولياء الله الصالحين، الربّانيين، أهل الشريعة والحقيقة، ثابتة لا شك فيها، وهي مشاهدة بأمر الله وكثير منهم يخفيها، حفاظاً على حالهم وسرهم.

(٣) رواها الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/١٢٨، ١٢٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (ص ٤٩٣، ٤٩٥).

وروى ابن عساكر من غير وجه بسنده إلى أبي بشر، جعفر بن أبي وحشيَّة: أن رجلاً من خولان أسلم فأراده قومه على الكفر فأبى، فألقوه في النار فلم يحترق منه إلاَّ الأُنْمُلة، لم يكن يصيبها الوضوء، فقدِمَ على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له: استغفر لي. فقال أبو بكر: أنت أحقّ أنت أُلقيت في النار فلم تحترق فاستغفر له. ثم خرج إلى الشام، وكانوا يشَبِّهونه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا الرجل هو أبو مسلمِ الخولاني.

وهذه الرواية تُحقِّق أنه إنما نال ذلك ببركة متابعته الشريعة المحمدية، كما جاء في حديث الشفاعة: «حرَّم الله على النار أن تأكل مواضِعَ السجود»[١].

قال ابن كثير: وقد وقع لأحمد بن أبي الحواريّ، مع شيخه، أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما، الآتي ذكرهما قريباً، قصة تشبه هذه وكلاهما ساكن داريَّا، كما رواه ابن عساكر في ترجمة أحمد بن أبي الحواريّ، بسنده من غير وجه.

أنه جاء إلى أستاذه أبي سليمان الداراني يُعلمه أنَّ التَّنُّور قد سَجَرُوهُ، وأهله ينتظرون ما يأمرهم به، فوجده يُكلِّم الناس، وهم حوله، فأعلمه بذلك فلم يلتفت إليه واشتغل عنه بالناس، ثم أعلمه ثانياً فلم يلتفت إليه، ثم أعلمه ثالثاً، فقال له أبو سليمان: اذهب واجلس فيه. واشتغل أبو سليمان بالناس. فذهب أحمد إلى التنور، وهو يضطرم ناراً، فجلس فيه، فكان عليه برداً وسلاماً، وما زال جالساً حتى فرَغَ أبو سليمان من كلامه، فقال لمن حوله: قوموا بنا إلى أحمد، فإني أظنه قد ذهب إلى التَّنُّور، فجلس فيه، امتثالاً لما أمرته به. فذهبوا فوجدوه جالساً فيه فأخذه أبو سليمان بيده وأخرجه رضي الله عنهما[٢].

وأما الشيخ المذكور الإمام قدوة السادات الصوفية، صاحب الكمالات السَّنِيَّة والمقامات العلِيَّة، أبو سليمان عبد الرحمٰن بن أحمد بن عِطية الدارانيُّ نفعنا الله تعالى به.

فقد كان الشيخ المذكور عنسِيَّ القبيلة، وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومئتين من الهجرة رضي الله عنه، وكان كبير الشأن بين مشايخ الطريقة، آية في علوم التصوُّف والحقيقة.

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢)، وأبو داود (٤٧٣٠)، والترمذي (٢٥٥٧)، والنسائي (٢/ ٢٢٩)، وابن ماجه (٤٣٢٦).

(٢) انظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٢٦٨، ٣٤٨).

قال الإمام، حجّة الإسلام، الغزاليُّ في «الإحياء» عند ذكر كلام أبي سليمان على معنى بعض المقامات: لله دَرُّ هذا الإمام الكبير الشأن، ما تكلَّم على حالٍ أو مقامٍ إلاَّ كان كلامه من بين أقرانِهِ أنفس الكلام موفياً بنهاية المرام.

ولنذكر حصَّةً رائعة من كلماته الفائقة.

قال رحمه الله تعالى: من لطائف المعاريض قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] تهديدٌ بلطفٍ، يعني أنه تعالى لا يقبلُ إلاَّ الخالِص، وما ليس بخالصٍ فهو ليس له، كما يشير إليه الحديث القدسي: «أنا أغْنَى الشريكين»[(١)].

وسبب توبته أنه قال رضي الله عنه: اختلفت في أول أمري إلى مجلس قاصٍّ، فأثَّر كلامه في قلبي، فلما فارقته لم يبق في قلبي شيء من كلامه، فعدت ثانياً إليه، فسمعت كلامه فبقي كلامه في قلبي إلى بعض الطريق ثم زال عني، ثم عدت إليه ثالثاً، فبقي أثرُ كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي وكسرت الآت المخالفات ولزمت الطريق»[(٢)].

قال الغزالي في «الإحياء»: قيل: حُكِيت هذه لمالك بن دينار فقال: عصفور صاد بازِياً.

وسأله رجل عن أقرب ما يتقرَّب به العبد إلى ربِّه، فقال: أن يطَّلِع على قلبك وأنت لا تريد في الدنيا والآخرة غيره[(٣)].

وقال رحمه الله تعالى: كل ما يشغلك عن الله تعالى من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم[(٤)].

وقال: من أحسن في ليله كُوفىء في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله[(٥)].

وقال: اختلف المشايخ في حقيقة الزُّهد، وأنا أقول: إنَّ الزُّهد ترك ما يشغلك عن الله تعالى[(٦)].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠١)، (٣/ ٤٦٦).
(٢) يعني طريق القوم، طريق الله رب العالمين.
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٦)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٥٥).
(٤) انظر: إحياء علوم الدين لحجة الإسلام (٣/ ١٠١).
(٥) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٥).
(٦) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٥).

وقال تلميذه أحمد بن أبي الحواريِّ، المقدَّم ذِكْرُهُ: دخلت يوماً على أستاذي، أبي سليمان الداراني، وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ فقال لي: يا أحمد، لِمَ لا أبكي إذا جنَّ الليل وخلا كل حبيبٍ بحَبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وأشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى: يا جبريل، بعَيْني من تلذَّذ بكلامي، واستراح إلى ذِكْري، وإني المُطَّلِع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبرائيل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يُعذِّب أحبَّاءه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنَّهم الليل تملَّقوني فبيَ حَلَفْتُ، إذا وردُوا على القيامة لأكشفنَّ لهم عن وجهي حتى ينظروا إليَّ وأنظر إليهم»[١].

وقال: لو لم يَبْكِ العاقل فيما بقي من عمره إلاَّ على ما فاته من لذَّةِ الطاعة في عمره، لكان يكفيه أن يُبْكِيه ذلك حتى يخرج من الدنيا[٢].

وقال: من خطرت منه الدنيا وأهلها على بالٍ، اضطربت عليه الأحوال، ومن ترك الدنيا للآخرة ربحهما، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما.

وقال: الدنيا تطلُبُ الهارب منها، وتهرب من الطالب لها، فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلته[٣].

وقال: عَوِّدوا عيونكم البكاء، وقلوبكم التفكُّر، وعلِّموا النفوس الرضا بمجاري المقدورة، فنِعْمَ الوسيلة هو إلى درجات المعرفة[٤].

وقال: لو أنَّ المعرفة نُقِشت على شيء لكان كل من نظر إليها مات من حُسنها وجمالها ولأظْلَمَ كل ضوءٍ في ضوئها.

وقال: لا يجيءُ الوسواسُ إلاَّ في كل قلبٍ عامرٍ. أرأيت السارق قطُّ يأتي خرِبَةً يَنقُبُها إنما يأتي إلى بيت فيه رزم[٥].

قال الإمام النووي رحمه الله في الأذكار[٦] ما نصه: قال السيد الجليل أحمد بن أبي الحواري بفتح الحاءِ وكسرِها: شكوت إلى أبي سليمان الدَّاراني الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأيَّ وقتٍ أحسست به فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك،

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١٠/ ١٦).
(٢) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٧٥).
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨).
(٤) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٧٤).
(٥) انظر: الحلية (٩/ ٢٥٧).
(٦) (ص ١٢٥).

فإنه ليس شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن وإن اغتممت به زادك وسواساً.

قلت: وهذا مما يؤيِّد ما قاله بعض الأئمة: إن الوسواس إنما يُبْتَلى به من كَمُلَ إيمانُهُ، فإنَّ اللص لا يقصِدُ بيتاً خرِباً». انتهى ما في الأذكار.

فائدة: ذكر أئمتنا في كتب الفتاوى: إذا خطر بباله أنه كافر لأنه لا يعرف الله تعالى فإن صدَّق هذا الخاطر فهو كافر فيجب عليه السعي في إزالة الشُّبهة وتجديد الإيمان، وإن أنكر ذلك بقلبه وتبرّأ منه فهو محضُ الإيمان[1]. وكذا الحُكمُ في ما خطر بباله مما لو تلفَّظ به كان كافراً، وهذا من المهمات التي يجب حفظها، والله أعلم.

قلت: يشهدُ لذلك ما ذكره أئمتنا في كتب الفتاوى: أنَّ وسواس الشيطان في صلاة الإنسان دليل محض الإيمان.

وقال لأحمد بن أبي الحواري: كن كوكباً بالليل، فإن لم تكن كوكباً فكن قمراً، فإن لم تكن قمراً فكن شمساً.

فقلت: يا أبا سليمان، الشمس أضوأُ من القمر، والقمرُ أضوأُ من الكوكب.

فقال: يا أحمد، كن مثل الكوكب يطلعُ من أول الليل إلى الإسفار، فقُمْ من أول الليل إلى آخره، فإن لم تقو على قيام الليل كله فكن مثل القمر يطلع بعضاً ويغيب بعضاً، فنم بعض الليل وقم بعضه، فإن لم تقدر على قيام الليل فلا تعص الله تعالى بالنهار، وإذا فاتك شيء من تطوّع الليل فاقضه بالنهار فهو أجدر أن لا تعود إلى تركه[2].

وقال: آخِرُ أقدامِ الزاهدين أولُ أقدام المتوكِّلين.

وقال: ليس الزاهد من ألقى الهموم الدنيوية واستراح، إنما ذلك راحةٌ، وإنما الزاهد من زهد في الدنيا وتعب فيها للآخرة[3].

وقال: إذا أردت قضاء حاجةٍ مهمة من حاجات الدنيا فلا تأكل حتى تقضيها، فإنَّ الأكل يغيِّرُ العقل.

وقال: اجعل ما طلبت من الدنيا ولم تظفر به بمنزلة ما لم يخطر ببالك ولم تطلبه.

---

(١) انظر: ما رواه مسلم في صحيحه (١٣٣).
(٢) انظر: الحلية (٩/ ٢٦١).
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٧٣).

وهذا كما يُحكى أنه قيل لبعض السادات يوماً: إن اللَّحم قد غَلا. فقال: أرخِصُوه. أراد: اتركوه فلا تشتروه.

وقال أحمد بن أبي الحواريّ: قلت لأبي سليمان: صلَّيْتُ صلاة في خَلْوَةٍ فوجدت لها لذَّة. فقال لي: وأي شيء ألذَّكَ منها؟ قلت: حيث لم يَرَنِ أحد. فقال: إنك ضعيف حيث خطر ببالك ذِكرُ الخَلْقِ(١).

قلت: هذا يُشْبه قول الفضيل بن عياض رضي الله عنه: تركُ العملِ لأجلِ الناس هو الرياءُ، والعمل لأجل الناس هو الشِّرْكُ(٢).

وقال: كنت ليلة باردةً في المحراب فأقلقني البردُ فأدخلت إحدى يدي من البرد وأبقيت الأخرى ممدودة، فغلبتني عيناي، فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها، فآليت على نفسي أن لا أدعو إلاَّ ويداي خارجتان حرّاً كان أو برداً(٣).

وقال: نمت ليلة عن وِرْدِي فإذا بحوراء لم أرَ أحسن منها تقول لي: أتنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمس مئة عام(٤).

وقال: ينبغي للعاقل أن لا يعجب بعمله، بل يعدُّ العمل نعمةً من الله تعالى، وإنما السبيل أن يشكر الله تعالى ويتواضع، وإنما يعجب بعمله القدرِيَّة الذين يزعمون أنهم يعملون وأما من علم بأنه يُستعمل فبأيِّ شيء يَعْجَبُ(٥).

وقال: طوبى لمن لزم الجادَّة بالانكماش والحذر، وتخلَّص من الدنيا بالهربِ كهروبه من السبع.

طُوبى لمن استحكم أموره بالاقتصاد، واعتقد الخير للمعاد، وجعل الدنيا مزرعةً وتتوَّق في البذْرِ ليفرح غداً بالحصاد.

وقيل: رأى رجلاً من الصالحين بمكة لا يتناول شيئاً إلاَّ شربةً من ماء زمزم وبقي على ذلك أياماً، فقال له الشيخ يوماً: أرأيت لو غارت زمزم ماذا كنت تشرب؟ فقام الرجل وقبَّل رأس الشيخ أبي سليمان وقال: جزاك الله خيراً فإني كنت أعبد زمزم ولا أعلم.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٧٨).
(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨٢).
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٩).
(٤) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٩).
(٥) انظر: الحلية (٩/ ٢٦٣).

وقال: إن في الجنة قِيْعَاناً فإذا أخذ الذَّاكِرُ في الذِّكْرِ أخذت الملائكة في غرسِ الأشجار له ـ كما جاء في الحديث[(١)] ـ فربما تقف بعض الملائكة في الغَرْسِ، فيقال له: لِمَ وقفت؟ فيقول: إن صاحبي فَتَرَ عن الذِّكْر[(٢)].

وقال: الناس في الدنيا رجلان: رجل أحب الله تعالى فأحب الموت شوقاً إلى لقاء ربِّه، ورجل أحب البقاء لإقامة حق الله تعالى عزَّ وجل.

قال: فوثب غلام من الحاضرين لم يحتلم، فقال: ورجل ثالث، فقال أبو سليمان: ومن هو؟ قال: من لا يختارُ هذا ولا هذا بل اختار ما اختاره الله تعالى له. فقال أبو سليمان: احتفظوا بالغلام فإنه صدِّيقٌ.

قال أحمد بن أبي الحواريّ: قلت لأبي سليمان: إنَّ فلاناً لا يقع من قلبي. فقال أبو سليمان: وليس يقع من قلبي، ولكن يا أحمد لعلَّنا أتينا من قِبَلنا لأنَّا لسنا من الصالحين فلسنا نُحبهم[(٣)].

قلت: ما أحسن حُسن ظنِّه بغيره، وسوء ظنه بنفسه، وألطف تأديبه لتلميذه رضي الله تعالى عنه.

ومثل ذلك ما ذكره أحمد بن أبي الحواري أيضاً: قال: حدثني عبد الله بن السري قال: قال محمد بن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حمَّل عليَّ الدَّيْنَ، حتى قيل: إنه مات في الحبس رضي الله تعالى عنه، فقيل له: ما هو؟ قال: إني قلت لرجلٍ منذ أربعين سنة: يا مُفْلِس. قال أحمد: فحدَّثْتُ بذلك أبا سليمان الداراني رضي الله عنه فقال: يا أحمد قلَّت ذُنُوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثُرَتْ ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نُؤْتى[(٤)].

وقال أحمد: قال أبو سليمان: أتدري ما أزال عن العاقل اللائمة عمَّن أساء إليه؟ قلت: لا. قال: لأنه عَلمَ أن الله تعالى عزَّ وجلَّ ابتلاهُ.

قلت: وهذا مثل قول ابن عطاء في الحِكمِ: ليُخَفِّف عنك ألَم البلاءَ عِلْمُكَ بأن الله تعالى المُبْلِي لك.

وقول القائل:

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود.
(٢) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٧٦).
(٣) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٦٢، ٢٦٣).
(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٧١).

وخفَّفَ عني ما أُلاقِي مِنَ العنا ... بأنك أنتَ المبتلي والمقدِّرُ

وقال أحمد بن أبي الحواري: اشتهى أبو سليمان رغيفاً حارّاً بملح، فجئت به إليه فعضَّ منه عضَّةً ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول: يا رب عجَّلْتَ لي شهوتي، لقد أطلْتَ جهدي وشِقْوَتي فأنا تائب فاقبل توبتي. قال أحمد: ولم يَذُقِ الملح حتى لَحِق بالله تعالى.

وكان يقول في دعائه: «اللهم يا من لا يأنَسُ بشيءٍ أبقاه، ولا يَسْتَوْحش لشيء أفناهُ، يا أنيس كل غريب، ارحم في القبرِ غرْبَتي وآنِسْ فيه وحشتي ووحدتي».

وها هنا حديث ذكره القسطلاني في «المواهب اللدُنِّيَّة»[١]، وابن خميسٍ في «مناقب الأبرار»[٢]، والحافظ أبو نعيم «في معرفة الصحابة»[٣]، والحافظ أبو موسى المديني[٤] من حديث أحمد بن أبي الحواري فقال: سمعت أبا سليمان الداراني قال: حدثني علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي، قال: حدثني أبي عن جدي قال: وفدْتُ سابع سبعةٍ من قومي على رسول الله ﷺ فلمَّا دخلنا عليه وكلَّمناه أعجبه ما رأى من سَمْتِنا وزيِّنَا فقال: «ما أنتم؟» قلنا: مؤمنون. فتبسَّم عليه السلام وقال: «لكل قولٍ حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟» قلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمَرَتْنا رُسُلُك أن نُؤْمن بها، وخمس أمَرَتْنا أن نعمل بها، وخمس تخلَّقْنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلاَّ أن تكرَهَ منها شيئاً. فقال ﷺ: «ما الخمسُ التي أمرتكم رُسُلي أن تُؤمنوا بها؟» قلنا: أمَرَتنا أن نُؤْمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: «فما الخمسُ التي أمَرَتْكم أن تعملوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إلٰه إلاَّ الله ونُقيم الصلاة ونُؤْتي الزكاة ونصوم رمضان ونحُجَّ البيت إن استطعنا إليه سبيلاً. قال: «وما الخمس التي تخلَّقْتُم بها في الجاهلية؟» قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُرِّ القضاءِ، والصدق في مواطن اللقاء، وتركُ الشماتة بالأعداء. وفي رواية ابن خميس في الخامسة: والإحسان إلى من أساء. فقال رسول الله ﷺ: «حُكماء، علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء». ثم قال: «وأنا أزيدكم خمساً فتتِمُّ لكم عشرون خصلة».

وفي رواية: «وإني أوصيكم بخمس لتكمل لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما

---

(١) طبع عدة طبعات في مصر وبيروت، وعليه حواشي، وله مختصرات.
(٢) يسّر الله لنا تحقيقه، وهو تحت قيد التحقيق على عدة نسخ خطية.
(٣) طبع لأول مرة كاملاً ـ بتحقيقنا ـ مشاركة ـ دار الوطن الرياض ١٩٩٨م.
(٤) في اللطائف، طبع، وله أيضاً معرفة الصحابة، مستدركاً على معرفة أبي نعيم.

تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تتنافسوا فيما أنتم عنه غداً زائلون، وارغبوا فيما عليه غداً تقدُمُون، وفيه تخلُدُون، واتَّقوا الله الذي إليه ترجعون». وفي رواية: «تُحْشرون وعليه تُعْرضون».

قال علقمة: فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وقد حفِظُوا وصيَّته وعملوا بها ولا والله يا أبا سليمان ما بقي من أبناءِ أولئك القومِ غيري. ثم قال: «اللهم اقْبِضْني إليك غير مبدِّلٍ ولا مُغَيِّرٍ. قال أبو سليمان: فمات ـ والله ـ بعد أيامٍ قلائل[١].

قلت: وكلماته كثيرة، ومناقبه شهيرة، ذكرها الإمام ابن خميس، تلميذ الإمام الغزالي في كتاب «مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار»[٢]، وذكر بعضها الإمام القُشيري في «الرسالة»[٣]، والغزالي في «الإحياء»[٤]، والسهروردي[٥] في «عوارف المعارف» وغيرهم رضي الله عنهم وعنه وأرضاه.

وممن سكن دارَيَّا من الصحابة رضي الله عنهم: بلال الحبشيُّ رضي الله عنه مؤذِّن رسول الله ﷺ.

قيل: إنه مات بدارَيَّا بعد أن تزوَّج امرأة من أهلها اسمها هند الخولانية، وقيل: ليلى، وكانت وفاته سنة عشرين من الهجرة، وعمره بضعٌ وستون سنة، وحُمِل على أعناقِ الرجال من دارَيا ودُفِنَ في باب الصغير.

وقيل: إنه دُفِنَ بدارَيَّا في مقبرةِ الخولاني[٦].

قال ابن كثير: «والظاهرُ أنه دُفِنَ بدارَيَّا وأنَّ القبرَ الذي ببابِ الصغير الذي يقال له قبرِ بلال إنما قبرُ بلال بن أبي الدرداء لا قبرُ بلال بن حمامة مؤذِّن رسول الله ﷺ»[٧] والله أعلم.

وقال النوويُّ: الصحيح أنه دُفِنَ بباب الصغير[٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٩)، وأورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٢٢١)، وابن قيم الجوزية في زاد المعاد (٣/ ٦٧٢).
(٢) فيها (٨٧/ ق/ ب).
(٣) في (ص ١٥).
(٤) الإحياء (٤/ ٢٤٥) ط مصر.
(٥) في عدة مواضع.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٠٣).
(٧) انظر: المصدر السابق في (٩/ ٩٣).
(٨) في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٧).

وهذا بلال بن أبي الدرداءِ، كان والي إمرة دمشق، ثم وَلِيَ القضاء بها، وكان حسَنَ السيرة، كثير العبادة، وعزَلَهُ عبد الملك بن مروان عن القضاء، وولّى أبا إدريس الخولاني، وهو القاضي المشهور للأمويين كما سيأتي.

وسكنها أبو ثعلبة الخُشنيُّ الصحابيُّ أيضاً رضي الله عنه.

وممن سكنها من التابعين رحمهم الله تعالى: ثابت بن معبد المحاربي، وأخوه عطِيَّةُ. روى عنهما شيخ أهل الشام المجتهد عبد الرحمٰن الأوزاعي رضي الله عنهم.

ومنهم: الأسود بن بلال المحارِبيُّ، التابعيُّ، وسعيد بن عِكْرِمة الخولاني، كان على حرس عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعمرو بن عبد الخولانيُّ تزوَّج بزوجة أبي مسلم الخولاني، بعده فسئلت أيهما أفضل؟ فقالت: أما أبو مسلم فلم يكن يسأل الله تعالى شيئاً إلاَّ أعطاه، وأما عمرو فكان ينوَّرُ له في محرابه حتى كنت أغْزِلُ على نُور محرابه من غير مصباحِ رضي الله عنهما.

ومنهم أبو إدريس الخولاني واعِظُ دمشق، وقاضيها من قبل الأمويين، وهو من خيار التابعين.

روى عن معاذ بن جبل، وكثيرٍ من الصحابة، وروى عنه الزُهريُّ، وأبو قِلابة وغيرهما من التابعين، وكانت له منزلَةٌ عظيمة عند عبد الملك بن مروان. يُقال: إنه عزله عن الوعظ وولاَّهُ القضاء بعد بلال بن أبي الدرداء كما تقدم.

فقال: عزلُونا عمَّا نُحِبُّ، وولَّونا ما نكره رحمه الله تعالى.

قلت: وسكن دارَيَّا خلائق من التابعين، وجملة من العلماء والمحدثين بدارَيَّا. وقد رأيت مؤلفاً مفرداً في أسماء المحدثين بداريا.

ورأيتُ جُزءاً في الأحاديث التي رُوِيت عند ضريح أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه، ونفعنا به آمين. وقد نقلْتُ منها سبعة أحاديث جعلتُها لهذا المؤلف مِسْكَ الختام، تبرُّكاً بحديث النبي ﷺ.

الحديث الأول: رواه الشيخ المسند بدر الدين حسنُ الماتاني بدارَيَّا عند ضريح سيدنا أبي مسلم الخولاني بسنده المتَّصِل إلى مالك بن أوسٍ، قال: أتى العباس وعليٌّ أبا بكرٍ الصِّديق رضي الله عنهم لمَّا استُخْلِف، فجاء علي يطْلُبُ نصيبَ فاطمة رضي الله عنها، وجاء العباس يطلُبُ نصيبهُ مما كان في يد رسولِ الله ﷺ، وكان في يدِهِ نصفُ خيبر ثمانية عشر سهماً، وكانت ستة وثلاثين سهماً، وأرضُ بني قُرَيْظة وفَدَك.

فقالا: ادفعها إلينا فإنها كانت في يد رسول الله ﷺ.

فقال لهما أبو بكر: لا أرى ذلك، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «إنَّا معاشِرَ الأنبياء ما نُورثُ ما تركنا فهو صدقةٌ»(١).

فقام قوم من أصحاب النبيِّ ﷺ فشهِدُوا بذلك، قالا: فدعها تكون في أيدينا تجري على ما كانت في يد رسول الله ﷺ.

الحديث الثاني: رواه الشيخ جمال الدين عبد الهادي عند ضريح أبي مسلم، بسنده إلى معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يَبْق من الدنيا إلاَّ بلاءٌ وفِتْنَةٌ».

الحديث الثالث: رواه أبو المحاسن يوسف العمريُّ بدارَيَّا عند ضريح أبي مسلم بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «ما كان من نبيٍّ إلاَّ كان له حوارِيُّون يَهْدُون بِهَدْيِهِ وسُنَّتِهِ، ثم يكُونُ من بعدِهِم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما ينكرون، من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خَرْدَل»(٢).

الحديث الرابع: بسنده أيضاً إلى أبي بصْرَةَ الغِفاريِّ رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بالمُخَمَّصِ فقال: «إنَّ هذه الصلاة عُرِضَتْ على من كان قبلكم فضيَّعُوها، فمن حافظ عليها كان له أجْرُهُ مرَّتين»(٣) إلى آخر الحديث.

الحديث الخامس: رواه المحدِّث ناصر الدين بن أبي عمر بدارَيَّا عند ضريح أبي مسلم الخولاني بسنده إلى عامر بن سعد بن أبي وقاصٍ، رضي الله عنه، أنه كان قاعداً عند عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، إذ طلع خبَّابٌ صاحب المقصورة فقال: يا عبد الله ألا تسمع ما يقول أبو هريرة إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خرج مع جنازةٍ من بيتها وصلَّى عليها، ثم تبِعَها حتى تُدْفن، كان له قِيراطانِ من أجر، كل قيراطٍ كجبلِ أُحد، ومن صلَّى عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أُحد»(٤). فأرسل ابن عمر خبَّاباً إلى عائشة رضي الله عنها يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره بما قالت، وأخذ ابن عمر قبضة من حصى المسجد يُقَلِّبها في يده حتى رجع إليه خبَّابُ فقال: قالت عائشة: صدَقَ أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان بيده إلى الأرض،

(١) رواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧).
(٢) رواه مسلم (٥٠).
(٣) رواه مسلم (٨٣٠).
(٤) رواه مسلم (٩٤٧).

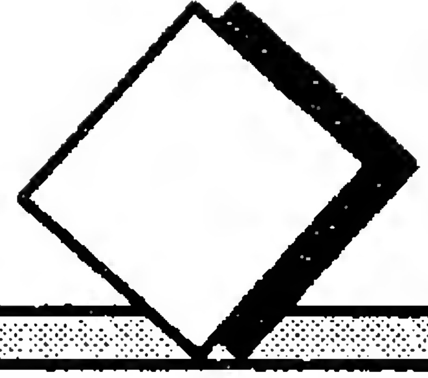
ثم قال: لقد فرَّطْنا في قراريط كثيرة» الحديث.

الحديث السادس: بسنده أيضاً إلى أم المؤمنين، أم حبيبة، عن أمِّ المؤمنين، زينب بنت جحش رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ استيقظ من نوم مُحْمَرّاً وجهه، وهو يقول: «لا إله إلاَّ الله، ويْلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قد اقْتَرَب، فُتحَ اليوم من رَدْمِ يأجُوج ومأجُوجَ مثلُ هذه» قالت زينب: أنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ»(١).

الحديث السابع: روى المسند أبو البقاء محمد بن عمَّار بقريَةِ داريّا عند ضريح أبي مسلم بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسَّان: «إنَّ رُوْحَ القُدُسِ لا يزالُ يُؤَيِّدُكَ ما نافَحْتَ عنِ الله ورسوله».

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم.

(١) رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠)، وأحمد في مسنده (٦/ ٤٢٨).



فهرس المحتويات

AL-MANHAL AL-ᶜAḎB AR-RAWI FĪ TARJAMAT QUṬB AL-ᵓAWLIYAᵓ AN-NAWAWI

by

Muḥammad Ben ᶜAbdul-Raḥmān Al-Saḫāwi

Followed by

TUḤFAT AL-KIRĀM
FĪ MANĀQIB SĪDI ABI BAKR BEN QAWĀM

by

Muḥammad Ben ᶜUmar Ben Qawām

Followed by

MANĀQIB SĪDI ABI AL-ᶜABBĀS AS-SABTI

Followed by

AR-RAWḌAH AR-RAYYA
FĪ MAN DUFINA BIDĀRAYYA

by

ᶜAbdul-Raḥmān Ben Muḥammad Al-ᶜImādi

Edited by

Aḥmad Farīd Al-Miziyadi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon